

خواطر وأحاديث

أحمد حسن الباقوري

كتاب اليوم

يصدر عن مؤسسة اخبار اليوم

خواطر وأحاديث

أحمد حسن الباقوري

عزيزى القارىء :

بظهور هذا الكتاب تكون مؤسسة ((أخبــار اليوم)) قد بدأت لقـــاءاتها بك فى مجموعة من الكتب تتناول مختلف قضـــــايا الدين والفكر والسياسة والاقتصاد والفن والتاريخ وغيرها من سائر العلوم والفنون .

ومؤسسة ((أخبــار اليوم)) تعتقد أنهـــا ــ بهذه الخطـوة ــ تفتح أمام القـــارىء نافذة واسعة يستطيع من خلالها أن يطل على أرحب ميادين المعرفة والثقافة .

وبهذه الخطوة أيضا تبدأ محاولة أخــرى فى ارساء واحد من الاسس الهـــامة لبناء المواطن المثقف الذى يشكل الدعامه الرئيســـية لاقامة الدولة العصرية .

ويهمنا بالدرجة الاولى أن تشارك أيها القارىء العزيز برأيك وفكرك وقلمك فى نقد وتقييم هذا العمل الذى هو قبل كل شىء من القراء واليهم .

كتاب اليوم



إهـــــداء

بسم الله الرحمن الرحيم

الى الرئيس جمال عبد الناصر رئيس الجمهورية العربية المتحدة ..

والى اخوته ملوك ورؤساء أمتنا ..

أهدى هذا الكتاب ..

باسطا الى الله عز وجل يد الضراعة ..

أن يجمع على الحق كلمتهم .. وأن يعقد على الخير عزائمهم .. وأن يجعلهم سعادة للشعوب التى يسوسونها .. وعزة للأمة التى ينتمون اليها .. والله سميع مجيب .

أحمد حسن الباقورى

كلمة تقديم :

بين يدى .. هذا الكتاب

هـذه خواطر وأحاديث ، تحت راية القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ، أردت لها أن تكون كتابا . وان كانت العناصر الأساسية للكتاب لم تتجمع له ، فان الكتاب وحدة قائمة مترابطة ، أشبه شيء بالنهر ، يمد أوله آخره ، ويحتاج آخره الى أوله .

وهذه الخواطر والأحاديث لم يتوافر لها هذا العنصر الذى يجعلها كتابا بهـذا المعنى ، غير أن الذى شجعنى على أن أقتحم هذا الميدان الجليـل هو أخى وزميـلى الدكتور أحمد عمار عضو مجمع اللغة العربية ، ثم أكدت هذه الرغبة وزادتها احتراما فى نفسى مؤسسة أخبار اليوم عندما تحدث الى الأحياء من أعضاء أسرتها فى هذا الشأن .. وقد وجدتنى بعد هذا الحديث الذى جرى مع رغبة زميلى الدكتور عمـار منشرح الصدر لاخراج هذا الكتيب

وكل كتاب يمكن أن يكون كتابا على أن تتوافر له عناصر ثلاثة :

- المنهاج الذى يصلح أن يكون أداة اصلاح فى المجتمع .
- والقدوة التى تكون صورة حية للمنهـاج ، فان كل منهـاج اصـلاحى بغير قدوة تمثله أصدق التمثيل ، هو عبث لا خير يرجى منه ، ولا ثمرة تلتمس فيه .
- المدرسة التى تنشأ عن المنهاج والقدوة وتحتضن الاصـلاح المنشود الى ما شـاء الله لها ، من حيوية واثمار .

وكل دعوة اصلاحيـة أنتجت للمجتمع الانسانى خيرا اذا تأملناها رأينا نجاحها قائما على هذه الدعائم الثلاث ..

المنهاج .. القدوة .. الانصار ..

وقد توافر فى هذا الذى أريد له أن يكون كتابا ·· توافر له أمران ··

المنهاج ·· فى تلكم الآيات القرآنية التى تدل على ما فى كتاب الله من معانى الاصلاح وتسوق الى النظر فى أدبه الاجتماعى ، وأدبه الروحى ، وأدبه الاقتصادى ·

وقد اشتمل أيضا الى جانبى المنهاج ، على حديث يدور حول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى خلقه ، وأدبه ، وسلوكه ، فهو القدوة الصالحة ، على ما يقول الله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » ·

وبقى الركن الثالث وهم الانصار ، وهم الذين قصدت بهذا الكتاب أن أجمعهم حول المنهاج والقدوة ··

وليس هذا قولا يلقى على عواهنه القاء فكل دعوة فى القديم وفى الحديث ، وفى الشرق وفى الغرب ، لم تتهيأ لها سبل النجاح ، ولم تؤت ثمارها الا اذا التزمت نهجا اصلاحيا عادلا ، يساير الفطرة الصحيحة ، ويشبع حاجات الانسان الطبيعى ·

وأبين شىء ، وأحقه بالاحترام والتقدير فى المنهاج الاصلاحى أمران ·· ذكرهما القرآن الكريم فى أقصر سورة من سور القرآن الكريم ·· « **فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف** » فالاطعام من الجوع والتأمين من الخوف هما ما تحتاج اليه الانسانية فى كل عصر وفى كل مكان ·

وكل منهاج ضمن هاتين الحقيقتين فهو منهاج صالح لابد له أن ينجح وأن يسود ، وكل منهاج أغضى عن هاتين الحقيقتين ولم يعتبرهما فانه أبعد ما يكون عن التماس الطريق الى النجاح ·

وانى أحب للقــارىء أن يتأمل حقا فى هذه الآية ، أن الله تعالى دعا خلقه الى عبادته بمنتين ، امتن بهماعليهم ، المنةالأولى ٠٠ الاطعام من الجوع والمنة الثانية ٠٠ التأمين من الخوف ٠

ووجه العبرة هنا أن الله هوالخالق الموجد ٠٠ هو الذى أوجدهم من عدم ومنحهم نعمة الحيــاة ، وكان من الممكن أن يدعوهم الى عبادته بهـذه المنة وحدها ٠٠ وأن يقول مثلا « فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى خلقهم وأعطاهم نعمة الحياة» ولكنه عدل عن هذا الى هذا التعبير الكريم فى السورة فطلب من خلقه أن يعبدوه ليس لانه أوجدهم ومنحهم نعمة الحياة ، ولكن ، لانه أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ٠

مما يجرى فى ظل هذه الآية الكريمة قول النبى صلى الله عليه وسلم ٠٠ « من أصبح منكم آمنا فى سربه ، معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » ٠

أما بعد : ففى هذا الظل الكريم من أدب الله وأدب نبيه ، وفى فقه مهما يكن محدودا بسير التاريخ ، وسير المصلحين ، أرجو أن يجد هذا الكتاب من القارئين من يشركنى عاطفتى هذه ورجائى أن ينفعنا الله تعالى به فى خطانا الى اسعاد شعبنا واعزاز أمتنا بالسعى الكريم المخلص لاشباع حاجات الناس ، وحملهم على الاحســاس الســابغ الوافر بأمن النفس وطمأنينة القلب ، وذلك هو خير الدنيا ، وذلك هو ما سعت وتسعى اليه الانسانية فى كل زمان وفى كل مكان ٠٠ والله ولى التوفيق ٠

أحمد حسن الباقورى



بضاعتنا فى الطريق إلينا



الحضارة مقبلة الينـا .. وهى حضارة مطبوعة بطابع الشرق .. فيها حياة وفيها روح ، وفيها خير للشرق والغرب جميعا .. »

العالم الانسانى كله عالم واحد ، تنتظمه خصائص وصفات تؤلف من أفراده وجماعاته جنسا خاصا ، له مميزاته بين سائر المخلوقات .. وحيث كان الانسان فهو فرد فى هذه الاسرة الانسانية الكبيرة مهما اختلفت الالسن والالوان ، ومهما تباعدت الازمان والاوطان .

وما الشرق والغرب الا اسمان متقابلان كما يتقابل الشمال والجنوب . والخط الذى يفصل بين الشرق والغرب خط وهمى — على حد تعبير الجغرافيين ... ومع هذا فقد تعارف الناس وجرى التاريخ على ان العالم عالمان : شرقى ، وغربى وأن لكل عالم حسابه وتقديره الخاص فى موازين الحياة .

هناك اذن عالمان : عالم شرقى ، وعالم غربى ؛ وفى كل عالم من هذين العالمين مجموعة من الأمم والشعوب تعيش فيه وتدور فى فلكه ، وتخضع لظروف البيئة السائدة فى محيطه .

والفروق التى يذكرها علماء الاجتماع بين الشرق والغرب كثيرة متعددة ، ترجع الى اختلاف فى المزاج والتفكير ، والى تباين فى الصفات النفسية والخلقية التى يعود الكثير منها الى الوراثات ، والى ظروف الحياة وأحوال البيئة ؛ وذلك مما جعل الاختلاف واضحا بين الشرق والغرب ، وجعل لكل تفكيره ، ومذهبه وأسلوبه فى الحياة .

ولعل أهم مايذكر من فروق بين الشرق والغرب أن أمم الشرق تعتمد على الخيال وتلون حياتها به ؛ وتبنى حاضرها ومستقبلها عليه . وان أمم الغرب تؤمن بالواقع وتعمل له وتعيش فيه ، وتقدر حاضرها ومستقبلها على قدره .

ولا يعجز الباحثون عن أن يجدوا الدليل على هذا الرأى . فقد استقل الشرق وحده بالنبوات جميعها ، والنبوات ــ كمانعلم ــ تعتمد أكثر ماتعتمد على ايقاظ الروح وتوجيهها الى السماء ، ووصلها بالملأ الأعلى ، ولفتها الى الحياة الآخرة وما يتصل بها من بعث وحساب ، وجنة ونار وكلها أمور تثير الفكر ، وتغريه بالانطلاق الى تلك الاجواء الروحانيــة الشفيفة التى لايستطيع العقل أن يرتفع اليها الا على أجنحة الخيال ، هــذا الخيال الذى جعل العقلية الشرقية تتقبل كثيرا مما وراء المــادة ، وتؤمن بالصالح منها وغير الصــالح . فكما امتلأت دنيا الشرق ــ من فيض هذه الروحانية وبفضل هذا الخيال ــ بالخفقات المتجهة الى السماء النابضــة بالايمان ، امتــلأت كذلك أجواؤه بألوان السحر والشعوذة ، وبأشباح الخرافات والأباطيل .

أما الغرب الذى آمن بالوقائع ، ووثق بالمادة فلم يكن له من هذه الروحانيات ولا من هذا الخيال نصيب مذكور ، ولهذا انصرف الى الحياة يعالجها بكل قواه ، ويلقاها بكل ماعنــده من حول وحيلة ، ويشتبك مع واقعها فى صراع عنيف طويل .

⊙❖⊙

هــذا الخيال الذى يذكره علمــاء الاجتماع فى مظاهر التفكير بين الشرق والغرب هو الذى جعل الشرق شرقا ، والغرب غربا ، وجعل لكل منهما دوره فى الحياة ، وفلسفتــه التى يعالج بها شــئونها ، ويواجه مشكلاتها .

ونحن لانستطيع أن ننكر هذه الظاهرة .. فان أمم الشرق يغلب عليها حقا عنصر الروح الذى ينزع بها الى الخيال ، والذى يجعل لها نظرات خاصــة تمتد الى ما وراء المادة ، وتنفذ الى عالم المجهول ، وتصل بها الى نتائج تدور فى كيانها ، وتؤثر فى تفكيرها وتسيطر على سلوكها . فهذا العنصر الروحى قد كان له ــ ولا شك ــ دور هام فى الامم الشرقية .. وكان له حسنات ، كما كان له أيضا سيئات . .

ونستطيع أن نذكر من حسنـاته أنه قد أتاح للشرق أن يسبق فى ميدان التقدم والعمران ، وأن يفتح له الخيال مغالق العلوم والفنون ، ويفسح له الطـريق الى مجالات الابتكار والاختراع .. فان عين الخيال أحد بصرا وأوسع أفقا من عين الحقيقـة والواقع .. ومن حسناته أيضا أنه قد وصل أمم الشرق بأسباب السماء فملأ القلوب ايمانا وسـكينة ، وأشاع فى النفوس الثقة والطمأنينة بالاستناد الى أقوى الاقوياء .. كما أشاع فيها الامل والرجاء فى الجزاء الطيب للعمل الطيب ، وكل هــذه ولا شك دعائم قوية فى بنــاء الجماعات والامم ، واشاعة المثل الفاضلة والاخلاق الكريمة فيها .

ونستطيع أن نذكر فى سيئات هذا العنصر الروحى انه قد غلب عليه الخيــال المريض فى كثير من الاحيــان ، وبين كثير من الأمم ، فأصبح معول هدم مدمر . وجعل الحياة أوهاما وضلالات ، فأقام الناس على محيط لاساحل له من السراب الخادع والأمانى الكواذب ، حتى فرغت دنياهم من كل خير ، وانتهى بهم الحال الى اسوأ حال من البؤس والشقاء .

هذا رأى .. وأيا كان الأمر فان هناك شرقا ، وهناك غربا ، وان بين الشرق والغرب مابين كفتى الميزان من تعـادل حينا ، وتراجح أحيانا ، والتاريخ يشهد أن كفة الشرق كانت هى الراجحة وان الحياة كلها كانت بيد الشرق من يوم أن استقبل العالم الحياة ... فما ان طلعت شمس الوجود على الانسانيــة حتى كان الشرق هــو الذى استقبلها ، فملأت دنياه دفئا واشراقا ، وفتحت خياله على أسرار هذا العالم فصاغ منها أعظم حضــارة عرفها التاريخ .. فما عرف العالم الى اليوم حضارة تقف الى جانب الحضارة المصرية القديمة ، ولا تبلغ من القوة والعمق مابلغته هــذه الحضارة فى مختلف العلوم والفنون وشواهدها الباقية تشهد لهذا وتقف الى الآن متحدية علوم العصر أن تفك الغــازها ، وتكشف أسرارها ، وتصــل الى صميم الحقيقة منها .

وكذلك كان الشأن فى حضـــارة الهنـــد والصين ، وبابل وآشور ، وفارس . وكلها حضارات قامت على عمد ثابتة من العلم الصحيح ، وعلى أصول مقررة من الفن الرفيع وبهـــذه الحضارة التى انفرد بها الشرق رجحت كفته ، وخلاله وجه الحياة زمنا طويلا ، على حين كان الغرب لايزال يعيش عيش البداوة ، ويأخذ من الحياة ما تسمح به دون أن يقدر على شيء مما تزويه عنه ، وتحجبه دونه .

⊙❖⊙

وقد يذكر بعض الناس أن حضارة اليونان والرومان كانت تعاصر حضارة مصر ، وفارس وبابل وآشور . وأنها كانت من القوة والعمق بحيث لاتقل عن أية واحدة من هذه الحضارات .

ونقول أن هـــذا حق ، وأن حضارة اليونان كانت على هذا النحو ولكننا مع هذا نستطيع أن نقرر أن هذه الحضارة قد اعتمدت فى كثير من أصولها على الحضارة المصرية والفينيقية .. اذ كان اليونان أصحاب تجارة مع مصر والشام وغيرها من البلاد الواقعة على ساحل البحر الابيض ، وقد نقل اليونان ما استطاعوا نقله من هذه الحضارات .. وكشف البحث أخيرا فى اليونان عن تماثيل لفراعنة مصر . كما يذكر التاريخ أن « هيرودوت » المؤرخ اليونانى قد عاش فى مصر زمنا وكتب كثيرا من أخبارها . وكل هـــذا يدل على أن حضارة اليونان قامت فى ظل الحضارات الشرقية وأهمها حضارة مصر .. فحضارة اليونان ان لم تكن شرقية فهى ربيبتها . قد غذيت منها واعتمدت عليها فى الغالب الكثير من صورها .

ولقد ظل الشرق عهـــدا طويلا قائما على الحضارة منفردا بها .. والغرب يستقبل من هـــذه الحضارة شعاعات بين الحين والحين فى هذه الحروب التى كانت متصلة بين فارس واليـــونان وفى فتوحات الاسكندر .. ولكن الغرب مع هذا لم يستطع أن يقف على قدميه وان يقيم حضـــارة تناظر حضـــارة الشرق أو تقاربها .. حتى كان الفتح الاسلامى واتصال العرب بالغرب عن طريق الاندلس وصقلية .. هنالك اســـتطاع العرب أن يخلطوا أمم الغرب بهم ، وأن يوثقوا بينهم أواصر الثقة والمودة مما جعل كثيرا من أبناء أوربا يقبلون على تعلم العلوم العربية فى جامعات اشبيلية وطليطلة وغرناطة وغيرها من جامعات الاندلس وذلك لمـــا عرف عن العرب من ســـماحة جعلت الاوربيين يأنسون اليهم ويؤملون خيرا عندهم .

واستطاع الغرب بهذه الثقافة العربية الخالصة أن يرى الحياة وان يبعث التراث اليوناني وهو كما قلنا تراث عظيم فى العلوم والفنون ، وتأثر كثيرا بالحضارة الشرقية وخاصة مصر ، وبهذا استطاع الغرب أيضا أن يتهيأ لاقامة حضـارة وأن يكون لهذه الحضارة حسابها فى ميزان الحياة وان تزداد هذه الحضارة مع الايام نموا وازدهارا بينما تأخذ الحضـارة الشرقيـة فى الذبول والجفاف ، حتى لكأن العالم لايحتمل حضارتين ، وأنه اذا كانت هناك حضارة فلا بد أن يقابلها من الجانب الآخر تأخر وانحطاط . ولعل هذا التضاد فى الحياة هو من سنة الحياة ، واصل أصيل فى بقائها وعمرانها .. فهى ليل ونهار ، ونور وظلام ، وخير وشر ، وسلام وحرب ، وصحة ومرض ، وغنى وفقر وهكذا .. انها مسرح تتقـابل فيه الاضـداد وتلتقى عليه المتناقضات .

وما كادت أضواء المعارف والفنون ترسل أول خيوطها على الافق الغربى حتى بدأت شمس المدنيـة الشرقيـة تنحدر نحو الغرب ، وتخلف وراءها ظلاما لم يلبث أن تكاثف وتحول الى ليل دامس يغمر الآفاق ، بينما أخذ الغرب شيئا فشيئا يستوفى حظه كاملا من مظاهر المدنية والعمران .

◉❖◉

ولو ذهبنا نعلل لهذا التحول فى احوال الشرق والغرب ، وغروب شمس الحضارة هنا وشروقها هناك ، لوجدنا لذلك كثيرا من العلل والأسباب فهذا التحول الذى أتى على حضارة الشرق ــ مع أنه سنة من سنن الحياة وان لكل حضارة أجلا ، وان الحضارة الشرقية قد استوفت عمرها وبلغت أجلها ــ هـذا التحول له أسباب مباشرة لايمكن اغفالها ..

منها أن هذه الروحانية التى قلنا انها طبيعة غالبة فى أمم الشرق قد بعد بها العهد عن ينابيعها الأولى فأصابها الجفاف ولحقها العطن ، وبدأ الجهل يزحف عليها فى صور كثيرة من الخرافات والأباطيل التى تتحكم فى حياة الناس ، فتعزلهم عن الحيـاة ، وتلهيهم عنها بهـذا السراب الذى يعيش عليه خيالهم المريض .

ومنها أن الغرب حين اشتد ساعده وحين واتته القوة ارسل على الشرق جيوشا زاحفـة احتلت ارضه واستعبدت أممه ، وأرهقتها بألوان العسف والاستبداد فزاد ذلك من بلاء الشرق وضاعف من محنته ، وأسرع بالقضاء على معالم علومه وفنونه ..

كذلك كان الشأن فى تحول أحوال الغرب ، وانتقاله من البداوة الى الحضارة ومن الهمجية الى المدنية . فهذا التحول مع أنه أمر طبيعى يجىء فى دورة الفلك بغروب الشمس عن أفق وطلوعها على أفق ، الا أن له أسبابا مباشرة لايمكن اغفالها أيضا ..

منها أن الشرق قد أمد الغرب بكثير من المعارف ، وأطلعه على الكثير من معالم المدنية ، ووضع بين يديه منها مثلا معنوية ومادية .. فكان لذلك أثره فى اثارة غريزة التقليد والمحاكاة فيه ، وفى تقوية الرغبة عنده الى التفوق والتقدم .

ومنها ان العقلية المادية التى غلبت على التفكير الغربى .. ان تكن قد ابطأت بالغرب عن مجال الحضارة زمنا طويلا .. الا أنها وثقت الصلة بينه وبين الطبيعة وجعلته فى مواجهتها دائما .. وذلك قد أتاح له فرصا كثيرة شاهد فيها — عن كثب وبعين الواقع — كثيرا من أسرارها وخفاياها . وبهذا استطاع أن يقيم حياته على أسس سليمة راسخة خالية من طلاء الخيال ، وزخارف الأوهام .

وهكذا جرى القدر ؛ وتمت دورة الفلك بأن تذهب حضارة ، وتقوم حضارة ، ويهوى الشرق ويرتفع الغرب ، وصدق الله العظيم حيث يقول جل شأنه : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » .

⊙❖⊙

واليوم .. قد بدأ الشرق يصحو وبدأت الدماء الحارة تجرى فى عروقه وتنساب فى كيانه ، وكان أول تباشير هذه الصحوة انقشاع سحب الاستعمار عن آفاقه .. ثم ماتبع ذلك من الالتفات الى تراث الماضى والاتجاه الى العناية بالعلوم والفنون ومزاحمة الغرب فيها ..

هذه ظاهرة واقعة لابست حياة الشرق ، فأصبحت متجه آماله ومرمى أهدافه فما هى النتائج التى نعلقها عليها وننتظرها من ورائها ؟ .

نستطيع أن نقول فى ظل هذه الظاهرة الواقعة :

أولا — أن الشرق فى طريقه الى حضارة جديدة تقوم على ماقامت عليه حضارته الاولى من علم وفن وأن الشرق ليهتدى الى هذه الحضارة ويستلهمها بما استقر فى نفسه من أحاسيس بموروثاته من حضاراته الماضية التى لاتزال تدور فى آفاق نفسه ، ولا تزال تحلق فى سماء خياله .. وأنه بهذه الانبعاثات الداخلية — الى جانب الانبعاثات الخارجية من مظاهر العلوم والفنون — سيبلغ غايته من الحضارة والمدنية فى وقت قريب .. فان معالم الطريق له واضحة ، وأدلته

عليها كثيرة وبينها الف .. وكل هذا مما يعينه على قطع الطريق الى الغاية، وتوفير الكثير من الجهد والوقت .

ثانيا ـ ان الشرق سينتقل اليه ثقل ميزان الحياة، وستكون له الكفة الراجحة .. وانه سيسلم اليه زمام هـذا العالم وقيادته، وذلك لما قررنا من قبل من أن العالم لايحتمل حضارتين .. وأنه لاتظهر فيه في وقت واحد الا حضارة واحدة .. فى الشرق أو فى الغرب.

واذا كانت الحضارة قد أخذت طريقها الى الشرق كما قلنا، فانها ستخلى مكانها حتما من الغرب ولا يبقى منها الا ظلال !

واذا كانت الحضارة قد أخذت طريقها الى الشرق كما قلنا، فانها نستطيع أن نقول ان الحضارة الغربية قد اعتمدت على المادة الظالمة المستخفة بالمثل الكريمة لحياة الانسـان واستندت اليها وجعلت علومها وفنونها مسخرة لما يناقض تلك المثـل الرفيعة مناقضـة واضحة صارخة، ثم ما زال هذا الشعور المادى ينمو ويقوى حتى تحولت هذه الحضارة الى حجارة صماء، وأرقام متحركة، لاتلمع فيها ومضة روح .. وهذا ايذان باختناقها وموتها .

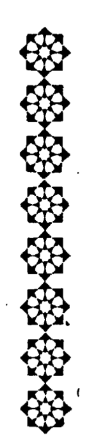
نقول هذا لاشماتة فى الغرب، ولا حقـدا عليه، ولكن لأن هذه سنة الحياة : لا تطلع فيها شمسان، ولايجتمع فيها نهاران. . وحضارة الشرق آتية لاريب فيها . فهل يمكن أن تبقى مع ذلك حضارة الغرب ؟ لاندرى، ولكن الذى ندريه وفى يدنا الدليـل عليه هو أن الحضـارة مقبلة الينا، وانها حضارة مطبوعة بطابع الشرق .. فيها حياة، وفيها روح، وفيها خير للشرق والغرب جميعا .

⊙❖⊙

لقد كانت حضارة الغرب نقمة وبلاء على العالم كله .. فانه على الرغم مما بلغته هذه الحضارة فى ميادين العلم والفن، وعلى كثرة ما أنتجت من صور الحياة المادية وعلى قدر ما ملأت الدنيا من وسائل المتعة والرفه .. قـد ركبها الغرور، واستبد بها جهل القوة فاستـخفت بحقوق الضـعفاء، واستهانت بمعايير الاخلاق، وتنكرت للاديان، وحقرت من شأن المثل الفاضلة .. وكان من هذا كله ان امتلأت دنياها بالاباحية والالحاد وجعلت النـاس فى هم دائم وفزع مقيم من نذر الحرب وويلاتها ..

اما مدنية الشرق المرتقبة فانا نرجو أن تقوم على المبادىء التى قامت عليها من قبل وان تصل بأصولها الانسانية الصافية، فتحمل الى الناس الخير الخالص من شوائب الاذى وتقيم الامم جميعا على نهج الحب والمودة والاخاء.

المنهاج الواضح والقدوة الصالحة



في الناس من يهزه الى الحق أيسر التنبيه.. وفيهم من لا يهتز الا بالمنطق الصاخب ، والزجر البالغ واللفت الشديد .

إن أمتنا محتاجة أشد الاحتياج الى التربية الاسلامية.. والاسلام لكى يبلغ غايته الى القلوب فتصغى اليه ، والى النفوس فتستأسر له ، والى الحياة فتسعد به ، لا بد له من أن يقع فى دنيا الناس بأمرين :

أولهما : المنهاج الواضح المحدد الصريح الميسور .

وثانيهما : القدوة الصالحة ، التى تحاول تربية الناس على الخير بما تفعل ، أكثر مما تحاول تربيتهم على الخير بما تقول .

فان الدعوات الاصلاحية منذ كانت ، لم تشب لها نار ، ولم ترتفع لها راية ، بكلمات جوف يقولها لسان فصيح أو يخطها قلم سيال ، وانما بلغت ما بلغت من المجد والقوة ، بحسن الاسوة وجمال القدوة فى الداعين اليها ، والمتشبثين بها ، والرواد بين أيدى السالكين

الطريق اليها .

تلك سنة من سنن الله الكونية ، التى لم تتخلف ، والتى لن تتخلف ، والذين يتصفحون تاريخ الامة الاسلامية بوجه خاص ، يرون القرآن كتاب الله العظيم فى يد عمر بن الخطاب هو القرآن نفسه فى يد غيره من حكام المسلمين ، ويرون القرآن فى ألسن وعاظنا الاوائل هو نفسه فى أفواه وعاظنا المتأخرين ، ثم يرون الناس فى عهد عمر غير الناس فى عهد سواه ، ويرون الناس بين أيدى الوعاظ المتقدمين غير الناس بين أيدى وعاظ السلاطين. وليس لهذا الاختلاف البين من سبب سوى ما أشار اليه كتاب الله تبارك وتعالى فى قوله جل شأنه :

« **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون . كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون** » .

ولعل أبلغ ما يشرح هذا المعنى الذى أشارت اليه الآية الكريمة من ضرورة القدوة الحسنة الى جانب المنهاج الواضح فى أثمار الدعوة، كلمة الحسن البصرى رضى الله عنه ، فقد سئل : لماذا نرى أنفسنا اذا وعظتنا وقلوبنا واجفة وأبصارنا خاشعة ودموعنا واكفة ، فاذا وعظنا غيرك لم نزد على أن نستمع اليه استماع اللاهين ، فى غير احساس مهيمن ولا شعور مستبصر ؟

فقال الحسن البصرى رحمه الله جوابا على هذا السؤال : « يا اخوانى : ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة » .

تلك هى منزلة القدوة فى التربية الاسلامية ، المنزلة العظيمة التى أشارت اليها الآية الكريمة ، وألمع الى معناها الامام الجليل الحسن البصرى رضى الله عنه ، وهى منزلة لا تعلوها منزلة ، ولا أمل فى نجح أو بلوغ غاية بغير القدوة فى الدعوات الاصلاحية جمعاء .

وكتاب الله جل شأنه هو المنهاج العظيم الذى تتربى عليه الامة. ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو القدوة الحسنة . وليس فى الوسع أن نتمثل فى هذه الصفحات ما ضمنه القرآن الكريم من أدب

الدنيا والدين فى سائر فنون العيش وجميع ألوان الحياة . فحسبنا من هذا الادب الرفيع آيات يهتدى بها المؤمن فى ظلمات الحياة ، ويبتغى المصلح فى هدايتها الخير الكامل المنشود ٠

⊙❖⊙

واذا حاول ذو دعوة او ذو رأى أن يقنع بدعوته أو برأيه غافلا تمادت به الغفلة ، أو معرضا ألح عليه الاعراض ، فأول ما يلجأ اليه للاقناع ، أن يوقظ بالحكمة الفطرة الغافية ، ويستثير بالمنطق النظرة الخامدة ، ويحرك بالدليل المشاعر التى جمدت على الطريق المألوف من مواريث الآباء والاجداد ٠

ثم اذا استمرت الغفلة بالغافلين ، واستدام الاعراض بالمعرضين ، صار لابد من اللجوء الى أسلوب آخر ، فيه منطق خشن يتزلزل به ماوقر فى الاسماع ونبت فى القلوب من رواسب الجهل ، وأعراض التقليد ٠٠

وفى الناس من يهزه الى الحق أيسر التنبيه ، وفيهم من لا يهتز الا بالمنطق الصاخب ، والزجر البالغ ، واللفت الشديد ٠

والقرآن احتوى هذين اللونين من أساليب الكلام فى دعوته الناس الى الحق انصافا للعقول ، والى الخير اسعادا للبشر ٠٠ والذين يتدبرونه فى تلاوة أو سماع ، يتبين لهم ذلك أوضح تبين بأيسر مجهود ، فهو حينا ينبه بأسلوب هادىء ، فى برهان ساطع على الاصول التى لا يقوم بغيرها دين ، ولا يستقيم على سواها سلوك ، وهو حينا يعنف ويشتد لان الذين يناديهم الى الحق والى الخير لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، أولئك كالانعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون ٠

والأصول التى جاء بها رسل الله وأنبياؤه ليقوم عليها الدين ، تلتقى عند حقيقتين :

أولاهما : أن الله تعالى حق ، لم يعنه على الابداع فى الخلق معين ، ولم يشركه فى تدبير الملك شريك ٠

والحقيقة الثانية : أن الجزاء على العمل ان خـيرا فخير ، وان شرا فشر ، حق لاينفع فى دفعه جدل ، ولا يرقى الى سماعه شك .

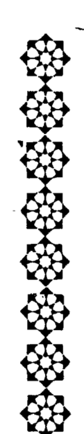
وقد تناولت آيات من سورة الواقعة حقيقة الالوهة وحقيقة الجزاء معا فى أسلوب هادىء يسير مشرق ، يعتـدى عليـه شر اعتـداء من يحاول له شرحا أو يؤازره بتبيان ، وذلك قول الله سبحانه :

> **« نحن خلقناكم فلولا تصدقون ، افرأيتم ما تمنون ، أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن نبدل امثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الاولى فلولا تذكرون ، أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ، لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون ، انا لمغرمون بل نحن محرومون ، أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ، لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون ، افرأيتم النار التى تورون ، أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشـــئون ، نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين ، فسبح باسم ربك العظيم .. »**

ذلك ومثله فى القرآن كثـير .. وهو الاسلوب الذى لا يأباه الا أحمق شديد الحمق أو جاحد يحترف الجحود .



نداء إلى مجتمع فاضل



الحيوان لا يسعى بالنميمة لافساد الصدور .. ولا يتشهى الغيبة لارواء الاحقاد .. ولكن الانسان يفعل هذا وما هو شر منه !!

من أدب القرآن الكريم فى معانى الاصلاح قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب احدكم ان يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم » .

النمل والنحل والظباء والفيلة وأصناف أخر من خلق الله ، نعرفها أو لا نعرفها ، هى أمم مثلنا تحيا فى اجتماع تسوق اليه الفطرة ، وتسعى فى تعاون يستجيب به المنفعة . وقد أعطاها الله تعالى من الالهام ، وركب فى خلقها من الغرائز ما جعلها مضرب الامثال فى الحياة القائمة على النظام الكامل والتعاون المثمر .

والانسان شريك الحيوان فيما تقوم به الحياة فى الاحياء ، فهو يولد . ويتغذى وينمو . ويتكاثر . ويموت .. والحيوان كذلك ،

يولد ويتغذى وينمو ويتكاثر ويموت ٠

سوى أن الله تعالى ميز الانسان ، فامتاز بأمرين :

أحدهما : العقل القادر على الحيلة والتأويل ٠

وثانيهما : اللسان المهيمن على الافصاح والبيان ٠

وهو على قدر ما كرم بهاتين الميزتين ، تعرض مجتمعه لمتاعب ومصاعب لم يتعرض لها مجتمع الحيوان، فالحيوان لا يسعى بالنميمة لافساد الصدور ، ولا يتشهى الغيبة لارواء الاحقاد ، ولا يتوسل بالتجسس الى ايذاء الحرمات ، ولا يمهد لسوء الظن أيسر السبل الى غمط الحق وتوهين الصلات ، ولكن الانسان العاقل المبين يفعل هذا ومثله وما هو شر منه غير مدفوع عنه بفطرة منصفه ، ولا ممنوع منه بعرف مطاع ٠

ومن هنا وضحت حاجة الانسان الى ما تزكو به الروابط فى مجتمعه ، وألحت الضرورة الى ما تشتد به الاواصر بين أفراده ، وكان لابد من هداية الله اياه من هذا الجانب ومن جوانب أخرى ، هداية تتذرع بالاقناع ، وتعتمد فى بلوغ غايتها على الرقابة الالهية التى لا يقصر بها علم ٠ ولا يشوب عدلها غرض ٠ كما تعتمد فى ذلك أيضا على الايمان بجزاء الله المحسنين بما يحسنون والمسيئين بما يسيئون ٠

والدين هو مظهر هذه الهداية الالهية ، وهو وحده القادر قدرة بينة على تزكية الروابط ، وتوثيق الاواصر فى المجتمع الانسانى بما معه من الهيمنة على العقول ليمنعها التأويل والاحتيال ، وعلى الالسن ليكفها عن التطاول والتجريح ٠

والاسلام خاتم الديانات ، وجامع ما جاءت به من خير للمجتمع الانسانى . عنى أبلغ العناية بكل ما تزكوه به النفوس ، وتسمو الاخلاق ، وهذه الآية من سورة الحجرات هى واحدة من آيات كثيرة لاتكف عن نداء المؤمنين الى مجتمع فاضل تقصر عنه أحلام الفلاسفة وخيالات المصلحين :

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم » ٠

العقل والطريق إلى الله



ان العقل مهما بلغ من القوة والذكاء ليس الا حاسة من الحواس التى تربطنا بعالمنا المحدود .. فان ركب ظهر الغرور انزلق الى ظلمات الضلال وتقطعت به الى الحقيقة الاسباب .



عن الله والتعرف الى الخالق أمر شغلت به الانسانية منذ كان لها وجود فى هذا العالم حتى لكأنما يدفعها اليه شعور خفى دافق ، ويسوقها نحوه سائق عنيف من فطرة كامنة فيها .

فالانسان بفطرته طلعة لايقنع من الحياة بمظاهر أشكالها وألوانها كما تنقلها اليه حواسه أو كما ينفعل بها شعوره ، بل يتناولها بعقله ، وينفذ اليها ببصيرته ليعرف حقيقة كل شىء .. من أين جاء وكيف صار والام ينتهى . وهو فى اشباع رغبته تلك لايدخر وسعا من ذكاء أو جهد حتى يبلغ من ذلك مايطمئن اليه عقله وتستريح به نفسه .

وكذلك كان شأن الانسان فى بحثه عن الله ، الحقيقة الكبرى التى هى مصدر وجود هذا العالم واليها مصائر أموره ، فلقد أكثر من التطلع اليها والبحث عنها حتى تفرقت به السبل واختلفت فيها

مذاهبه ، اذ لاشك أن هـذه النظرات المتطلعة الى تلك الحقيقة الكبرى قد أخذت ولاتزال تأخذ صورا واشكالا متعددة متباينة ؛ تختلف باختلاف الناس واستعدادهم الفكرى وما يحيط بهم من ظروف الحياة وأحوالها . فلكل وجهته التى هو موليها ، ولكل مبلغه من العلم وحظه من التوفيق . فبينما يصل اليها بعضهم عن طريق النظر فى ملكوت السموات والارض على اختلاف فى مجال هذا النظر عمقا وامتدادا ، اذ يصل اليها بعضهم الآخر عن طريق العاطفة المجردة عن الادراك ، الواقعة تحت تأثير الوراثة أو السماع والتى لاتكاد تلامس الفكر أو تثيره .. وبين هؤلاء وهؤلاء طوائف وطوائف تقطع الطريق الى تلك الحقيقة فى مراحل متعددة تخلط بين العاطفة والفكر بنسب وأقدار متباينة .

ومن هنا نستطيع أن نقول ان لكل انسان تصورا خاصا لالهه الذى يعبده ، والذى ينزل من نفسه المنزلة التى هداه اليها عقله أو قلبه ، أحدهما أو كلاهما ، وبالقدر الذى تكشف له من الحقيقة ، وعلى الصورة التى تمثلت فى خاطره . ولذا تعددت الالهة ، وتفرقت بالناس مذاهب الرأى فيها فكان لكل أمة ربها ، ولكل جماعة دينها **« ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة .. ولا يزالون مختلفين ، الا من رحم ربك ولذلك خلقهم »** .

ولا نريد هنا ان نبحث فى تاريخ الاديان بعيدها وقريبها ، ولا أن نستقصى تعدد المعبودات والبواعث التى دعت اليها ، والصور والاشكال التى ظهرت فيها ، ولا أن نتحدث عن فكرة التوحيد أو التعدد ، فذلك مالاسبيل اليه فى هذا المقام ، وانما نريد أن تقول ان صورة الاله او الالهة التى عبدها الناس منذ كانوا ، انما كانت وليدة اقتناع وايمان أيا كان حظهما من العمق أو مداهما من الصدق .

فعابد النار أو الحجر أو الحيوان أو الشمس او القمر ، انما عبد معبوداته تلك بعد ان ملكت عليه زمام نفسه وأخذت بمجامع قلبه ، وتمثلت له قوة خارقة لا حد لها ، اليها مصائر أموره وعليها مدار ضره ونفعه فآمن بها واستسلم لها ووجه اليها وجهه ، وقلبه وعقله ..

وسواء أكان هذا الايمان منبعثا من أعماق النفس ، أم ملقى اليها من طريق الايحاء ، والاغراء ، فهو على اية حال ، ايمان ملك النفس وخالط المشاعر ، وبغير هذا لايكون ايمانا ، ولايسمى دينا ، وانه اذا

لم يبلغ هـذا الحد فستظل نفس الانسان فارغة خـواء ، وسيظل الانسان قلقا مضطربا ، حتى يقع على الاله الذى يسكن اليه قلبه ، ويطمئن به وجدانه ..

وحين تضل العقول سبيلها الى الخالق ، — وما أكثر ماتضل — وتنزل الانسانية الى هـذا الدرك من التفكير والسخف من النظر فتتخذ من الاحجار أربابا ، ومن الحيوان آلهة ،تجثو تحت أقدامها ، نعبدها وتفنى فيهـا وتقدم لها النفس والولد على مذبح التضـحية زلفى وقربانا ، حين تصل الانسانية الى هذا المدى من الاغراق فى الضلال والسفه ، تجىء رسالة السماء فى اباتها لتخرج الناس من الظلمات الى النور ، على يد رسل الله ، وأنبيائه الكرام .

⊙❖⊙

وأول دعوة تهتف بها الاديان السماوية فى آذان الناس ، الدعوة الى وحدانية الله ، وتحرير العقول ، والقلوب من الشرك به ، ورفع البصر اليه خالصا من أوهام الزيغ والضلال . وبهذا تصح انسانية الانسان ويرد اليـه اعتباره ويصبح أهـلا ليكون خليفة الله فى أرضـه .

ومهما اختلفت طرق الاديان السماوية فى اداء الدعوة الى الله وفى وسائل الاقناع بوحدته ، فانهـاجميعا تعتمد اول ما تعتمد على اثارة العاطفة وتحريك الوجدان اكثر من اعتمادها على اثارة قوى الادراك والتفكير .

ذلك أن حقيقـة الاله الموحد أكبر من أن يحدها الفكر ، أو يحيط بها الادراك — وان كان لهما فى آياته الرائعة مسارح للنظر والتأمل ، وفى آفاقها الرحيبة مجال للبحث والتفكير يفيض بها الوجدان روعة وجلالا ، ويمتلىء بها القلب طمأنينة وايمانا .

انظر الى النغم الموسيقى الرائع ، كم يثير فى الاسماع من بهجة ورضى ، وكم يحرك فى النفس من عواطف وأحاسيس .. انك لو ذهبت تطلبه بفكرك فى طبقات الاثير ، ترد كل ذبذبة فيه الى ضوابط من الفن ، وقواعد من العلم ، لاعيتك مذاهبه ، ولانتهى بك المطاف الى غـير طائل .. ثم انظر الى البحر فى سعته وامتـداده .. كم تأخذ صفحته الرقراقة المتموجة من نفسك وكم تبلغ عظمته وروعته من قلبك حين تملأ عينيك منه ، وتردد النظر فيه ، ثم انظر كيف بك اذا ألقيت بنفسـك فى عبابه ، ورميت بهـا فى ثبجه .. من أنت ؟ وماتكون ؟ ..

فكيف بهذا الخالق العظيم نرمى بعقولنا القاصرة ، وأفكارنا المحدودة فى عوالم لانهاية لها ، نريدها على أن تحيط به وتخضع حقيقته لما تخضع له حقائق الاشياء فى عالمنا المحدود ؟

لماذا لانقف من هذا الخالق العظيم موقفنا من النغم الموسيقى نلذ سماعه ، أو البحر نتملى جماله ؟ ولم نعدل عن هذا الى مسابقة النغم فى مسراه ، ومطاولة البحر فى عظمته ؟ ذلك هو الضلال البعيد .

ان العقل مهما بلغ من القوة والذكاء ليس الا حاسة من الحواس التى تربطنا بعالمنا المحدود ، فكما يكون للعين مدى تنتهى عنده مقدرتها على الابصار ، فلا تدرك ما وراء هذا المدى من مرئيات الا أشباحا باهتة ، وصورا شائهة، لاتغنى من الحق شيئا .. وكذلك الشأن فى كل حاسة من حواسنا ، لكل مجال تعمل فيه ، وتؤدى وظيفتها كاملة فى حدوده ، فاذا أريد بها الخروج عن هذا المجال ضلت واضلت . وكذلك شأن العقل وهو حاسة الادراك له مجاله المحدود الذى يعمل فيه ، ويدرك حقائق الاشياء فى محيطه ، فان أبى الا ان يركب متن الشطط ويستوى على ظهر الغرور ، انزلق الى ظلمات الضلال وتقطعت به الى الحقيقة الاسباب .

ولسنا نريد بهذا أن نمسك العقل عن التفكير والبحث فى التعرف الى الله ، فهو الطريق الطبيعى اليه ، وانما نريد أن ينهج العقل نهجا قاصدا فى البحث عن الله فلا يندفع وراء الخيالات والفروض ، ولا يشتط فى التطلع الى مافوق طاقته ، وليعترف بقصوره عن ادراك الحقيقة وعجزه عن تناولها ، وليرجع الى القلب يطلب عنده الاطمئنان والسكينة .

⊙❖⊙

ودعوة الاسلام صريحة فى أن العقل لايمكن أن يستقل بمعرفة الله ، ولا أن يهتدى اليه الا اذا صحبه فى تطوافه الى تلك الغاية قلب يتلقى عنه كل مدركاته فيحيلها عواطف وأحاسيس تشيع فى النفس روعة وجلالا .. ومن خلال هذا الشعور بالروعة والجلال يرى المرء خالقه الواحد الاحد المتفرد بالعظمة والجلال .

> **ولهذا كان الاسلام دين الفطرة .. والفطرة ليست عقلا صرفا ولا عاطفة محضا ، وانما هو مزيج من العقل والعاطفة اذا التقيا فلم يطغ احدهما على الاخر كانت الفطرة سليمة تنشد الله وتعرف سبيلها اليه من أقرب السبل .**

وتلك الفطرة مركوزة فى النفس البشرية تتحرى الى أداء وظيفتها منذ تتفتح مشاعر المرء وتستيقظ مداركه وعلى هذا الوجه من الفهم أحب أن أفهم قوله تعالى : ((**واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم ، واشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا .. أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين**)) .

وكيف يغفل المرء عن الله وفيه هـذه الغريزة المتطلعة الى الله المتشوقة الى الوصول اليه .

والتعرف الى الله عن طريق هذه الفطرة أمر سهل ميسور لايحتاج الى علم غزير أو نظر فلسفى ، وانما تكفى فيه النظرة الخالصة فى صفحات هذا الوجود . نظرة فى الارض أو السـماء .. فى الليل أو فى النهار .. فى عالم الحيـاة أو الموت .. فى النبتة الصـغيرة أو الشجرة الباسقة .. نظرة واحدة الى أية صورة من صور هـذا العـالم والى أى لون من ألوانه ترى الى العقل شـواهد ناطقة بقدرة الخالق العظيم ، وتحمل الى القلب فيضا من الاجلال والاكبار لهـذا الصانع المبدع « **الذى خلق سبع سـموات طبـاقا ماترى فى خلق الرحمن من تفـاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير** » .

فماذا يبلغ البصر من هذا المحيط العظيم الذى لاتضمه قيـود ولا حدود ؟ أولى له ثم أولى ان يقف عند حده وأن يرضى من النظرة الاولى بما يتكشف له من عجائب واسرار .

تلك هى طريقة الاسلام فى معرض الهداية الى الله والدعوة اليه .. انه يوقظ العقـل أولا .. يوقظه فى رفق ويسر حين يلفتـه الى مظاهر الكون المحيطة به ، والواقعة تحت سمعه وبصره . يريده أن يلتفت اليها لفتة حالمة شاعرة ، لا أن يغوص فى أعماقها يطلب عللها وأسبابها ويلتمس عناصرها واجزاءها .

استمع الى قوله تعالى : « **قل انظروا ماذا فى السموات والارض** » ثم استجب الى هذه الدعوة .. فماذا ترى فى نظرة فطرية الى هذا الملكوت الرحيب تنتعش بها النفس ويهتز لها الوجدان حين تطالع صفحة هذا الوجود فى أجمال بعيد عن التفصيل والتعليل ، ثم انظر الى قوله تعالى : ((**يا أيها الانسان ماغرك بربك الكريم الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك**)) فأى انسان تدق عن فهمه هذه الحقيقة الماثلة امام عينيه .. حقيقة الانسان على صورته تلك وما ركب فيها من أعضاء ؟

((**لايكلف الله نفسا الا وسعها**)) وأضيق درجات السعة فى النفس الانسانية قادر على ان يستشف فى معارض هذا الكون الدلائل الناطقة على قدرة الله ووحدانيته ولا على المرء بعد ذلك ان يفوته منها مايقع عليه الفلاسفة والعلماء من حقائق وأسرار ، فان كل هذا الى جانب الحقيقة الكبرى هباء وهراء ((**وما أوتيتم من العلم الا قليلا**)) وحتى فى مقام الجدل فى الله بين الجاحدين والمؤمنين .. لايسلك الداعى الى الله مسالك المنطق الجاف الذى يقوم على التصورات الذهنية التى تفتح للخصم أبواب الادعاء والمغالطة ، بل يعدل عن هذا الى الاسلوب الفطرى فيتناول المسائل من ابرز جوانبها وأوضحها حيث لايختلف فيها نظر ولايضل عنها فهم .

« **ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت قال : أنا أحيى وأميت ! قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب . فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين** » .

ولو ذهب ابراهيم فى الرد على هـــذا الكافر المعـاند مذاهب الفلاسفة والمناطقة لكان له فى الرد عليـــه مسالك غير التى سلك .. انسان يدعى انه يحيى ويميت .. وتلك دعوى عريضة لو تحـــداه ابراهيم بتحقيقها لاعجزه وكشف أمره .. ولكن من يدرى لعل هذا الطاغية المتكبر تأخذه العزة بالاثم فيمضى فى دعواه ويركب رأســـه دفاعا عن كبريائه فيمثل للشهود صـــورا من قـــدرته على الاماتة والاحياء ، وربما عمد الى انســان من رعيته ويقول : هـذا قد أحييته لانى أردت له الحياة !! ثم يعمد الى آخر فيضرب عنقه ويقول : هذا قد أمته لانى قد اردت له الموت ! ثم يرفع رأسه مزهوا منتصرا .

وما لابراهيم يكلف نفســـه دحض هذا الافتراء ، وعقد المقارنة بين صور الاحياء والاماتة من جانب الله ، وبين هذه الصورة الممسوحة من صور الاماتة والاحياء ؟. ما له يدخل فى هذا الجدل الطويل وأمامه مثل آخر لقدرة الخالق لا يستطيع أن يقول فيه هذا الجاحد ، يقول : **ان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بهـا من المغـــرب .. فبهت الذى كفر** .

بهذه الصورة الفطـرية الساذجة انقطعت حجة وبطل كيد ((**بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق**)) .

ان الذين ضلوا السبيل الى الله أحد رجلين : رجل حرم نعمـــة العقل ولم يؤت حظـا من الفهم والادراك فهو والسـائمة ســـواء ،

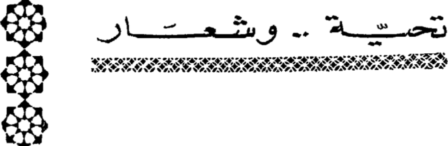
لا يلفته جمال ولا يوقظ مشاعره مشرق صبح أو سدفة مساء
((أولئك كالانعام بل هم أضل سبيلا)) .

ورجل خدعه ذكاؤه وغره علمه وخيل اليه أنه قادر على أن يخرق الارض أو يبلغ الجبال فمد بصره الى ما وراء الافق البعيد وضرب في بيداء التيه والضلال فكان أشبه بالفراش .. غرق في النور فاحترق بالنار .

وغايتنا من هذا البحث الوصول الى الله عن طريق العقل وما يتكشف له بالعلم والمعرفة من أسرار الكون وعجائبه .. فكلما تكشفت له حقيقة من الحقائق هتف من أعماقه : سبحان الخالق المبدع !.. اعترافا منه بأن الانسان وما سخر له العلم والمعرفة من وسائل القوة والاقتدار أضعف من أن يبلغ من أسرار هذا العالم شيئا مذكورا .

((يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وأن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ـ ضعف الطالب والمطلوب)) .







ان كلمة اسلام وسلم
وسلام .. يرجع بعضها
الى بعض .. ويؤخذ بعضها
من بعض .. ويشتق بعضها
من بعض ..



الكريم يحض على توثيق عرى المودة بين الناس فيقول :
« واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ان الله كان على كل شيء حسيبا » .

والتحية صلة ود فى كل مجتمع انسانى وعلى قدر ما تفشو التحية بين الناس ، تتوثق بينهم عرى الود ، وتموت الاحقاد فى الصدور .

والمجتمع الاسلامى حرص أشد الحرص على أن تفشو التحية بين المسلمين ، على قدر ماتسع الطاقة ، ويسمح الجهد ، حتى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس أطعموا الطعام وأفشوا السلام وصلوا الارحام وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام » .

وان الناس ليرون أنه صلى الله عليه وسلم قد قرن التحية ـ وهى افشاء السلام ـ الى كبار الامور من اطعام الطعام وصلة الارحام والصلاة بالليل والناس نيام .

وفى التحية الاسلامية وهى السلام معنى خاص زائد على مجرد التحية ، فان السلام سلم ، فهو ضد الحرب ، وهو ضد الخوف ، وهو ضد القلق ، وهو ضد الانزعاج .

فالأمة التى تتخذ هذه التحية شعارا لها ، فى كلام ربها وحديث نبيها صلى الله عليه وسلم ، هى أمة أحق بأن تكون أمة سلام من كل أمة فى الدنيا تقول عن نفسها أنها أمة سلام .

وان كلمة اسلام وسلم وسلام هى كلمات يرجع بعضها الى بعض ، ويؤخذ بعضها من بعض ، ويشتق بعضها من بعض . فمرجع كل كلمة من هذه الكلمات وما شابهها الى الطمأنينة وراحة البال وسكون النفس واستقرار القلب .

غير أن المسلمين فى الحديث وفى القديم أيضا ، طالما كانوا يعدلون عن هذه التحية الى تحيات مبتدعة ، لاتحمل هذا المعنى العميق الجليل الذى تحمله كلمة « السلام عليكم » . والتاريخ يروى أن حكيما أوصى تلامذته فقال لهم : اذا دخلتم على الامير فلا تقولوا له « السلام عليكم » فانه ان رد التحية شق على نفسه ، وان لم يرد شق عليكم ، ولكن استبدلوا بالتحية الدعاء له ، فقولوا حين تدخلون عليه ، صبحك الله بالخير والكرامة ، لان هذه التحية لا تحتاج الى رد .

ولكن الاسلام يأمر المسلمين أن يحرصوا على هذه الكلمة « السلام عليكم » يقولها الراكب للماشى والقائم للقاعد ، والجماعة للفرد ، والامير للرعية ، والمأمور للامير .

بل لقد أمرنا الاسلام اذا دخل الرجل حجرة ليس بها أحد أن يسلم على نفسه فيقول : السلام علينا . ويسلم الرجل على زوجته وعلى ولده ، ولا يرى نفسه أكبر من أن يفعل هذا ، فان الدين التزام عميق بأصول من الشريعة ، ألزم الله بها عباده المؤمنين .

والفقهاء من المسلمين يقولون ان البدء بالتحيــة مندوب اليه واما التحية بالأحسن منها أو ردها فواجب ، يحرم على المسلم أن يتركه.

وفى الآية الكريمة ((**واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ان الله كان على كل شيء حسيبا**)) فى هذه الآية ما يشبه أن يكون وعيدا على ترك التحية فى قوله ((**ان الله كان على كل شيء حسيبا**)) . فالله تعالى محاسب على كل شيء صغيرا كان أو كبيرا فالتحية ورد التحية من الامور التى يقترب بها المسلم من رضوان الله ، ويزداد بها حبا فى المجتمع .



الصبر .. والصلاة



الصبر هو رياضة الانسان نفسه على ماتكره .. والصلاة متممة للصبر ومعينة عليه



ألموا بشئون الدين يعرفون أن القرآن الكريم هو دعوة الله تعالى للبشر كافة الى الايمان ، ثم هو دعوته سبحانه الى ما يقتضيه الايمان من طيب السلوك وصالح العمل .

فالقرآن للمؤمن ناصح لا يغش ، ورائد لا يضل ، وأمين لا يخون. وهو لغير المؤمن داع دائب لا تفتر له دعوة ، ولا تدحض له حجة ، وهو يترصد الجاحدين بكل طريق ، يوقظ فيهم غافي الفطرة ، ويلفتهم الى دواعي الايمان .

وهذه الآية من كتاب الله تعالى « **واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين** » ، هى توجيه نافع وارشاد حكيم للمؤمنين الخاشعين يمهد لهم سبيل الخير ، ويأخذ بأيديهم الى ظلال وارفة من الامن والسكينة ، فليس كالصبر درع تتقى به عوادى الزمن .

وليس كالصلاة مفزع يجد به المهموم ما يجده الوليد فى حضن أمه من الراحة والاطمئنان .

والصبر فى معناه الجامع هو رياضة الانسان نفسه على ماتكره . فالذين يروضون أنفسهم على الحلم فى مواطن التسرع ، والذين يدفعون الحسنة بالسيئة ، والذين يبذلون النصيحة للمعرضين عنهم ، والذين يحبسون ألسنتهم عن شهوات الخوض فى سير الناس . كل أولئك يستحقون اسم الصبر ، وكل أولئك يستحقون من رحمة الله وجميل مثوبته ما يستحق الذين صبروا على فواجع الدهر ، ونكبات الايام ، وكل أولئك تنتظمهم السورة الكريمة **« والعصر ، ان الانسان لفى خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »** .

والصلاة فى الاسلام ، وفى كل دين اتصلت أسبابه بأسباب السماء ، هى الصلة بين الله تعالى وبين عباده ، وهى متممة للصبر ومعينة عليه. فقد يصبر على المكاره من لا دين له من حيث كان الصبر راجعا فى النفس الانسانية الى شدة الجلد ، وقوة الاحتمال ، ولكن الصبر عند هؤلاء وأمثالهم هو تجلد يشوبه الجزع وتجمل لقوى من خلفه الآلام فأما صبر المؤمنين فهو صبر يلجأ فيه المؤمن الخاشع الى ربه يضرع اليه ، ويستغيث به ، ويؤمل الخير عنده فاذا السكينة متنزلة عليه ، واذا الخطوب متصاغرة بين يديه ..

ولهذا ترى الصلاة مقرونة الى الصبر فى غير آية من كتاب الله عز وجل ، وصدق الله العظيم فى كل حال وحيث يقول : « **يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ان الله مع الصابرين**» وحيث يقول : « **واستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين، الذين يظنون انهم ملاقو ربهم وانهم اليه راجعون** »

والصبر فى لسان الشريعة ولغة المتدينين على **ثلاثة أوجه :**

أحدها الصبر على ترك الشرور والآثام .

وثانيها الصبر على فعل الخيرات والمبرات .

وثالثها الصبر على نزول الشدائد والتجمل لها وحسن الظن بالله تعالى فى مدافعتها والخلوص منها .

وهذا الوجه من وجوه الصبر ، وهو الصبر على نزول الشدائد ،هو أقوى الوجوه دلالة على الخشوع لله تعالى ، والثقة به ، وحسن الاعتقاد

فيه ، فقد يصبر الانسان على ترك الشر فيعينه على هـــذا النوع من الصبر ما فى الشر من قباحة وسوء عاقبة ، وقد يصبر المرء على فعــل الخير فيعينه على هذا النوع من الصبر ما فى الخير من صباحة وحسن مصير ، فأما الصبر على زلزلة النفوس بالسراء والضراء فلا معوان للانسان عليه ولا طاقة له به الا مع الاحتماء بالله تعالى والفزع اليه ، والله مع الصابرين دائما بمعونته ونصره وتأييده .

ولايعرف التاريخ امة صابرت البأساء والضراء لائذة بالله تعالى وثوقا بجميل عونه كما يعرف بهذه الخصائص امتنا الاسلامية ، وهى لم تكن كذلك لانهـــا اكرم الخلق عنصرا ، ولا آتم الناس خلقة ، ولكنها كانت كذلك لانها تربت فى كفالة الاسلام وحســـن رعايته ، وجميل توجيهه ،

وقد نرى صابرين على الضر تضرب الامثال بتجلدهم واصطبارهم غير أن دعائم الصبر عندهم تقوم على الاستهانة وعــــدم الاكتراث ، وهؤلاء لا تعتز بهم أمم ولا تنتفع بهم شعوب ، وربما رأينا صابرين على الضر تقوم دعائم صبرهم على الحقد والتربص ، وهؤلاء الصابرون على تربص وحقد ، هم دائما مسعر فتنـــــة ونذير بلاء ، وبهم دائما تتراجع الخطا الخيرة الى التقويم والاصلاح .

فأما الصبر الذى تقوم دعائمه على اللجوء الى الله تعالى ، والاستعانة به والتلفت الى جزيل رحمته وجميل معونته بعيدا عن الحقد الهــادم والتربص الآثم ، فهو الصبر الذى أمر الله تعالى به ودعا المؤمنين اليه ، وقرن الصلاة به فى أكثر من آية من آيات الذكر الحكيم ، ثم هو يعد هذا الصبر الذى يزامل الشكر فى حياة المؤمن حتى ينتهى به الى خير الدنيا والآخرة جميعا كما أشار الى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف « فعن صهيب الرومى رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عجبا لامر المؤمن : ان أمره كله خير ، وليس ذلك لأحد الا للمؤمن ، ان أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » .

والذين يطيب لهم أن يتدبروا القرآن وهم يقرءونه ، والذين يطيب لهم أن ينصتوا لترتيله وهم يسمعونه ، يتضح لهم أنه قلما ترد كلمة الصلاة الا وهى مقرونة الى كلمة الاقامة كما فى هذه الآية **((وأقيموا الصـــلاة وآتوا الزكاة وما تقـدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ان الله بما تعملون بصير))** . وفى آية ثانية **((أقم الصلاة لدلوك الشمس الى غسق الليل وقرآن الفجر ان قرآن**

الفجر كان مشهودا » ، وفى آية ثالثة « **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفا من الليل ان الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين»**

ومعنى اقامة الصلاة الاتيان بها على وجه يتمثل المؤمن فيه أنه ماثل بين يدى ربه يناجيه ويتضرع اليه على نحو ما كان يقول أحد الاسلاف الطيبين « كنت اذا أحببت أن أناجى ربى دخلت فى الصلاة ، واذا أحببت أن يناجينى ربى أخذت فى قراءة القرآن »

فالصلاة صلاتان : صلاة هى صورة فيها حركة وسكون وركوع وسجود ، وقيام وقعود ، وصلاة هى مع ذلك قلب خاشع وقيام ضارع وتذلل لمن بيده الملك وهو على كل شىء قدير .

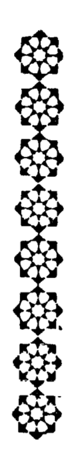
وهذا النوع من الصلاة هو الذى كان سلفنا الصالح ينشده لنفسه ؛ ويوصى المؤمنين به ، وهو الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه « من صلى ركعتين مقبلا بقلبه على ربه خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » ، وكذلك كان صلوات الله عليه « اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة » ، وكان الذين يحبون أن يقتدوا به يلجأون الى الصلاة يستجلبون بها رحمة الله ، ويتفيأون فى ظلها الأمن والسكينة والسلام .

واذا أدى المؤمن الصلاة على هذا النحو كملت عبوديته وخرج من حوله وقوته الى حول الله وقوته فيتم استعداده لقبول أوامر الله ، ويجرى اذعانه مع حسن ارشاده وجميل توجيهه ، وصدق الله العظيم حيث يقول « **ألا بذكر الله تطمئن القلوب »** .

ولعله من أجل هذه المعانى كثر مايكون بعد الامر باقامة الصلاة أمر بايتاء الزكاة من حيث كانت الصلاة على هذه الصورة توطئة ناجعة واعدادا عظيما لنفس المؤمن تكون به على غاية السخاء بالمال تبذله امتثالا لأمر الله على شدة الايثار له ، وشدة الضن به ، والمال عديل الروح كما يقولون .

وفى هذه الآية « **واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لانفسكم من خير تجدوه عند الله ، ان الله بما تعملون بصير** » ، أحيط ايتاء الزكاة بأمرين كلاهما يجعل البذل هينا ميسورا ، وأحد الامرين « أقيموا الصلاة » والامر الثانى « **وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله** » فاذا أقام المؤمن الصلاة استعد لبذل المال واذا آمن بالله وبجميل وعده فى العوض كمل هذا الاستعداد وتأكد على أحسن ما يكون التأكد والاستعداد .

المال .. والانسان



اذا لقى مواطن مواطنه
بمشاعر السيادة والشموخ
.. لاقاه مواطنه بما يرى
فيه شفاء لنفسه .. فلا
يلاقيه الا بالضغائن والاحقاد

يقول الله تبارك وتعالى « **يا أيها الذين آمنوا أن كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لانفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** » .

لا يكاد أهل القرآن يعرفون فى القرآن آية تنهال بالرعب على قلوب الخاشعين كما يعرفون ذلك فى هذه الآية ، فانها قد أوعدت بأليم العذاب أولئك الذين يجمعون المال ارادة كنزه وحبسه عن المضى فى سبيل الله ، يطعم جائعا ، ويكسو عاريا ، ويداوى مريضا ، ويغيث ملهوفا ، ويفرج كربة مكروب .

وليست صورة الوعيد فى الآية صورة مجملة يجد المتأولون فى اجمالها مخرجا ، ولكنها صورة واضحه المعالم بينة الرسوم ، فكل مال يحبسه جامعود عن الانفاق فى سبيل الله ليكون وسيلة لهم الى الملذات ، سيكون يوم الحساب وسيلة الى أشد الحسرات ، يوم يحمى عليه فى نار جهنم ثم تكوى به الجباه ، والجنوب ، والظهور .

والذين يدركون حقيقة المجتمع الذى يريده الاسلام للناس ، لايستسرقون هذا اللون من الوعيد . ولا يرونه عقوبة غير متكافئة مع جزاء الجريمة ، ذلك أن الكانز للمال دون انفاق فى سبيل خير المجتمع ، انما هو انسان تصرفه الأثرة وحب الذات دون نظر منه الا الى مصلحته ، ولا ايثار الا لمنفعته ، ثم هو فى عاقبة أمره انسان لا غاية له الا الاستغلال والاستذلال والا أن ينظر الى الناس من خلال كنوزه على أنه هو السيد المطاع ، وأنهم هم العبيد الخاضعون .

والناس مفطورون على أن يلاقوا مواطنيهم بما يلاقيهم به مواطنوهم ، فاذا لقى مواطن مواطنه بمشاعر السيادة والشموخ ، لاقاه مواطنه بما يرى فيه شفاء لنفسه فلا يلاقيه الا بالضغائن والاحقاد ، وعلى هذا تتعثر خطا الود فى المجتمع ، وتتزلزل قواعد التعاون فيه ، ثم اذا وجد الناس فى مثل هذا المجتمع طريقا الى الثورة عليه ثاروا ، وان لم يجدوا خضعوا والضغائن ملء النفوس، وتمنى زوال النعم حشو الصدور ، والانصراف عن العناية بشئون الامة العامة طابع الحياة ، وليس ذلك ولاشيء منه يصلح أن يكون خصيصة للمجتمع الذى يؤثره الاسلام .

ولقد يعرف الناس صاحبا من أصحاب النبى عليه السلام ومن أجل أصحابه قدرا ، وأحدهم بغاية الشريعةالاسلامية بصرا ، هو أبو ذر الغفارى رضى الله عنه كان يقول « لا يبيتن عند مسلم دينار ولا درهم الا ما ينفقه فى سبيل الله والا ما يعده لقضاء دين عليه ، والا مايمون به أهله وولده » ، وكان يخالف فى ذلك معاوية ابن أبى سفيان أول ملك من ملوك المسلمين فكان معاوية يقول هذه الآية نزلت فى أهل الكتاب ، وكأنه نظر الى ما فيها من الخبر عن أهل الكتاب « **يا أيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون** . . » وكان أبو ذر يقول : نزلت فينا وفى أهل الكتاب ، وكأنه نظر الى أن تحريم الكنز ورد فى قاعدة عامة دون استثناء وهى قول الله تعالى « **والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها**

فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » .. وهى قاعدة عامة تشمل المسلمين وغير المسلمين .

ومهما يكن من خلاف الناس لأبى ذر ، وضيقهم به ، واضطهادهم اياه ، ومهما يظن نظرهم اليه على أنه رأى غاليا ، ورمى بعيدا ، فان مما يجتمع الناس على أنه حرام أى حرام ، هو استغلال الشعوب ، وتسخير جهودها ، والاستئثار بالخير والنعمة دونها من حيث كان ذلك يقسم الشعب الى قلة تمهد لها الثروة الطائلة أسباب المتع حتى يقتلها الترف ، والى كثرة كثيرة يحرمها الفقر والعوز من كل متعة حتى يهلكها الحرمان .

ان العدالة فى المجتمع أصل أصيل بين مبادىء الاسلام ، وجمع المال وكنزه ليزداد الغنى غنى ويزداد الفقير فقرا هو مناهضة للعدالة وتربص بها من كل أفق وفى كل مكان ، ولهذا نهى المسلمون عن الاكتناز ، وأمروا أمر دوام ولزوم بالانفاق فى سبيل الله ، وكل بذل تمشى به العافية الى مريض ، والعلم الى جاهل ، والكرامة الى ذليل ، هو بذل فى سبيل الله ، أو هو البذل فى سبيل الله .

⊙❖⊙

والمال فى أيدى أصحاب المال منحة أو محنة ، ونعمة أو نقمة ، والمؤمن اذا عرف للمال حقه عليه فأداه كما تؤدى سائر الحقوق ، كان المال منحة جليلة ونعمة عظيمة ، واذا لم يعرف هذا الحق ذهولا عنه أو شحا به كان محنة يعظم بها الخطب ، ونقمة يستغلظ بها البلاء .

والناس منذ عرفوا الحياة وعرفتهم ، وعركوها وعركتهم ، فيهم من يزيد ماله على بلوغ أبعد غايات الترف ، فهو من كثرة المال ، والتقلب فى النعيم ، فى عيشة راضية ، ومنهم من يقصر كل ماله عن بلوغ بعض ضرورياته ، فهو من سوء الحال وتذاؤب العيش فى ضنك شديد .

وليس فى دنيا الاحياء مذهبة للاحقاد ، ومألفة للقلوب ، كبذل المال ، تقضى به الحاجات ، وتستدنى المودات ، وتستنقذ المروءات من المهانة والابتذال .

والقرآن الكريم ــ وقد أراده الله للعالمين رحمة ــ دعوة دائبة وترغيب شديد ، فى بذل المال لمعونة أولئك العاجزين عن الكسب ، يعرفهم الناس بسيماهم ، ويحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف .

ولا يكاد القرآن يذكر المال داعيا الى انفاقه فى سبل الخير الا مقترنا بالصلاة التى هى روح العبادة ، وروح الاسلام فى نفس المسلم ، وكأنما هذا الاقتران يشير الى أن الصلاة ، وهى حق خالص لله ، لا تبلغ غايتها من رضوان الله الا مع الرحمة لعباده بقضاء ما لهم من حقوق مالية فى رقاب أصحاب الاموال ، فان هى انفردت عنها كادت تضل الى الله الطريق .

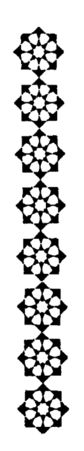
والمال فى القرآن له حقان : « أحدهما » حق تقتضيه الدولة بمعونة من شريعة الله ، وقهر من سلطان القانون ، و « ثانيهما » حق يقتضيه المسلم موكولا فى ذلك الى دينه وضميره عن طواعية واختيار .. والحق الاول هو المسمى **بالزكاة** ، والحق الثانى هو المسمى **بالصدقات** .

وكما اقتضى القرآن الكريم حق المال بكل سبيل ، أمر المؤمن أن يبذل ما يبذل سخيا لا يجرح بالمن النفوس ، سمحا لايستذل بالتطاول الرقاب .. والا شاه وجه الخير ، وجفت ينابيع الثواب ، وفى هذا المعنى يقول الله جل شأنه ((**يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى**)) ، وفى أسلوب آخر مسوق مساق الحكم المسلمة يقول ((**قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى**)) .

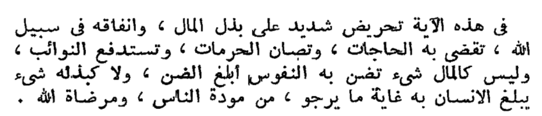
ورسول الله ــ صلوات الله عليه ــ لشدة حرصه على أن يعتنق الناس الحق فى عقيدتهم ، والخير فى سلوكهم ، كان كأنه يرى نفسه ملزما باهتدائهم اذا هداهم ، وباستجابتهم اذا دعاهم ، فكان عليه السلام يلقى من ذلك عنتا شديدا ، ويواقع حرجا عظيما . ولهذا يقول الله تعالى له ((**ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء**)) ، وانما الذى عليك هو أن ترشدهم أن يتحروا ببذل المال وجه الله لا وجه الناس ، وأن ينشدوا به ثواب الله دون من ولا ايذاء ، وثواب الله مذخور لهم **يوم لا ينفع مال ولا بنون . الا من أتى الله بقلب سليم** .



القرض الحسن .. والربا



الامة التى تستبد بأحد طرفيها القسوة والاستغلال .. ويستبد بطرفها الآخر العوز والعجز .. أمة يعجل اليها التفكك .. ويتربص بها الفناء .



« من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له اضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط واليه ترجعون » .

فى هذه الآية تحريض شديد على بذل المال ، وانفاقه فى سبيل الله ، تقضى به الحاجات ، وتصان الحرمات ، وتستدفع النوائب ، وليس كالمال شىء تضن به النفوس أبلغ الضن ، ولا كبذله شىء يبلغ الانسان به غاية ما يرجو ، من مودة الناس ، ومرضاة الله .

والاسلوب فى الآية الشريفة مصوغ صياغة عجيبة ، يساوق المعنى الشريف الذى تضمنته ، ويعادل الغاية الرفيعة التى استهدفتها ، وحرضت عليها .

وأول لطائف الاساوب فيها ، طلب البذل فى صيغة الاستفسار « **من ذا الذى يقرض الله** » ، وليس فى صيغة الامر « **اقرضوا**

الله)) ، والاستفسار دعوة للخيرين الى التسابق فى مجال البذل على غاية الحرية والاختيار .

واللطيفة الثانية من لطائف النظم الكريم ، استعمال كلمة القرض ، دون كلمة العطاء ، أو الانفاق ، أو البذل ، والمال المقروض مال غير ضائع ، بل هو مردود الى مقرضه ، وهو مع هذا لا يرد بعينه ، ولا بمقداره ، ولكنه يرد أضعافا كثيرة يوم يكون الانسان فى أشد الحاجة اليه ، وعلى أعظم الانتفاع به .

واللطيفة الثالثة أن القرض انما يقرض الله نفسه ، فالمال المعطى لقضاء حاجة أو صيانة حرمة هو اقراض لله تعالى ، ودين للباذلين عنده ، وقد كنى القرآن عن ذوى الحاجة بذات الله المقدسة ، كما يفسر ذلك الحديث الذى يقول فيه النبى صلوات الله عليه « ان الله عز وجل يقول يوم القيامة ، يا ابن آدم مرضت فلم تعدنى ، فيقول يا رب وكيف أعودك ، وأنت رب العالمين ، فيقول : ان فلانا عبدى مرض فلم تعده ، أما انك لو عدته لوجدتنى عنده .

واللطيفة الرابعة قوله سبحانه ((**والله يقبض ويبسط**)) ، والمعنى الجميل فى هذه اللطيفة ، هو أن المال الذى فى أيدى الناس ليس هو مال الناس ، ولكنه مال الله عند الناس ، فالذى أفقر الفقير قادر على اغنائه ، والذى أغنى الغنى قادر على افقاره ، وسنة الله جارية أبدا على التغيير والتبديل ، واللياذ بما لا يزول أخلق بالحكمة ، وأدنى الى الفطرة من اللياذ بما يزول .

فى هذا الاطار ، وما يشابهه ، ويجرى فى طريقه ، كان أسلافنا يقرءون القرآن ، ويتدبرونه ، فاذا هم ظافرون منه بأجمل ما عرفت البشرية من عاطفة ، وأعظم ما تخيل الناس من سمو ، وأصدق ما اعتنقوا من ايمان .

ولقد يروى التاريخ الثبت أن كثيرا من أصحاب النبى كانوا يخرجون عن أموالهم لله ، ولولا رسول الله يرشدهم الى امساك بعض مايملكون لاصبحوا فقراء يتكففون الناس ، فعن زيد بن أسلم قال : لما نزلت هذه الآية ((**من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا**)) ، قال أبو الدحداح — صاحب من أصحاب النبى — « بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، أو ان الله يستقرضنا ، وهو الغنى » قال « نعم » ليدخلكم الجنة ، قال فانى ان أقرضت ربى قرضا يضمن لى به الجنة مع صبيتى ، قال « نعم » ، قال ناولنى يدك ، فناوله رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ، قال : ان لى حديقتين قد

جعلتهما قرضا لله ، قال رسول الله «اجعل احداهما لله ، والاخرى دعها معيشة لك ولعيالك »

وهكذا كان المســلمون يتعايشون فى ظلال وارفة من التعاون والتكافل بغير كذب على الله ، وكنز للمال ، ومخادعة للشعوب ، واستغلال لعاطفة الاسلام .

◎❖◎

ولقد جاءت الديانات الخيرة جميعا بتحريم عقود الربا واعتبارها من أفحش الفواحش وأكبر الآثام .. يقول الله تعالى :

((الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظــة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)) .

وكان قارىء القرآن يقرأ قول الله تعالى : **((ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة))** حتى اذا فرغ من قراءته سأله المستمعون له ، هذه أشرف صور البيع فما أخس تلك الصور ؟

قال الشيخ : أن يبيع الانسان أخاه بمال قل أو كثر .

قالوا : وكيف يبيع الانسان أخاه بمال ، والعصر ليس عصر رقيق ؟

قال الشيخ : يقصدك أخوك مسـتقرضا أو مستوهبا ، ويده من المال صفر ، ومن ورائه حاجة بينة، وضر شديد فتمسك عنه مالك، وربما تزرعت الى هذا الامســاك بكواذب الأعذار ، فاذا لوح لك بصورة الربا ، أعطيته مايشاء بما تشاء ، فانت على ذلك أخسر بائع ، وهذه أخس صورة من صور البيع .

والذين برئوا من داء عبــادة المــال يرون الربا جريمة اجتماعية لاتعادلها فى تدمير المجتمع الانســانى جريمة ، وذلك أن المرابى اذا تمكن بواسطة عقد الربا من الحصول على مال فوق رأس ماله ، خف عليه اكتساب وجه المعيشة دون جهد يبذله فى اقامة صناعة أو تجارة أو عمل ذى بال فيه تعب أو مشقة وأصبح كل عمله بين الناس أن يتربص بهم حاجتهم اليه ليعطيهم ، وان ينتظر حلول ديونه عليهــم ليقتضيهم ، فاذا استقام لمثل هذا أن يكون قدوة لاصحاب الاموال ، فان فى ذلك وبالا على المجتمع الانسانى أى وبال .

وان بين الانسان وأخيه رابطة اخوة عزيزة ، وعلى مقدار ماتبذل لاخيك من معروف فى كلمة طيبة ، أو معونة نافعة تزداد هذه الرابطة

قوة ووثاقة ، وعلى مقدار ما تمنع عنه معروفك ، وأنت عليه قادر، تذبل مودتك فى قلبه وتضعف الرابطة العزيزة بينك وبينه ، وهذا المال الذى تمنعه اياه الا فى صورة ربوية ، هو عند التحقيق ليس مالك ، ولكنه مال الله عندك ، وهو اليوم معك ، وغدا مع غيرك ، ولو أنه بقى لسواك ما صار اليك .

ثم ان الربا تمكين لذى المـال من زيادة ماله بغير عمل ، والجاء للفقير الى جشع الغنى بغير اختيار ، والغاية المحتومة لهذه الصورة الكريهة ، أن تتألف الامة من طبقتـين : طبقة مستغلة خلت قلوبها من الرحمة ، وطبقة مستغلة خلت أيديها من الحيلة ، والامة التى تستبد بأحد طرفيها القسوة والاستغلال ، ويستبد بطرفها الآخر العوز والعجز ، أمة يعجل اليها التفكك ، ويتربص بها الفناء .

ولعله من أجل هـذه المعانى الكبيرة حرم الله الربا على عباده ، ونادى المؤمنين بوصف الايمان ، والايمان صفة شريفة ، أن يمتنعوا عن أكل الربا مجانبين مايتنافى الايمان من مرذول السلوك : ((**يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون**))، ثم فى موضع آخر يقول سبحانه : ((**وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عندالله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون**)) .

وقد خلع القرآن على المرابين الذين يأكلون الربا وهم يدافعون عنه ، ويصطنعون الأسباب لتحليله ، خلع عليهم صفة تدعو الى الضحك ولات ساعة مضحك يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وذلك أن الموتى اذا بعثوا من قبورهم للحساب ، خرجوا الى ذلك مسرعين مصداقا للآية ((**يوم يخرجون من الاجداث سراعا كأنهم الى نصب يوفضون**)) الا أكلة الربا فانهم يقومون ويسقطون كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، وذلك لأنهم أكلوا الربا فى الدنيا فأرباه الله فى بطونهم يوم القيامة حتى أثقلهم فهم ينهضون ويسقطون ، ويريدون الاسراع ولا يقدرون .

وقد روى فى قصة الاسراء مايؤكد هذا المعنى ، وهو أن النبى عليه السلام انطلق به جبريل الى رجال كلّ واحد منهم كالبيت الضخم يقوم أحدهم فتميل به بطنه فيصرع ، قال النبى « فقلت يا جبريل من هؤلاء ، قال : هم الذين يأكلون الربا لايقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس » .

تلك هى الصورة التى يكون عليها آكلُ الربا ، وفيها عبرة وعظة للمؤمنين .

يقولون .. ولا يفعلون



كان من قبلنا خيرا منا.. فكانوا يفعلون ولا يقولون .. ثم خلف من بعدهم أخلاف يفعلون ويقولون .. ثم هانحن أولاء بين أقوام يقولون ولا يفعلون .

المؤمن الحق لا ينبغى له أن يزكى نفسه ايثارا لما عند الناس من حسن الاحدوثة ، وهو يتجاهل ان فى ذلك اغضابا لله المطلع على دخائل النفوس ، وخفايا القلوب .

ومن أدب القرآن الكريم قوله تعالى : ((**الم تر الى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا**)) .

وكثيرا ما تجرى هذه الكلمة ((**ألم تر**)) على لسان القارىء وفى مسمع المنصت دون أن ترتبط الى قاعدة يتضح بها معناها .

وهذه الكلمة حيثما وردت فى كتاب الله تعالى ، هى دعوة الى مزيد من النظر المفضى الى مزيد من التأمل والاعتبار وهى فى هذه الآية تعجيب من قوم يزعمون لأنفسهم الغيرة على الحق وينسبونها بزعمهم الى زكاة العمل وهم مسعر فتنة ومطية اقلاق وازعاج .

ولقد رمى المجتمع الاسلامى بهذه الداهية منذ القديم ، فكان فيه من يزكى بالباطل نفسه ، ويحسبه أن يحمد بما لم يفعل : حتى لقد قال واحد من أسلافنا الصالحين « كان من قبلنا خيرا منا فكانوا يفعلون ولا يقولون ، ثم خلف من بعدهم أخلاف يفعلون ويقولون ، ثم ها نحن أولاء بين أقوام يقولون ولا يفعلون ، فكأنما نحن أولئك الذين عناهم الله بقوله ((يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون)) .

ومن هذا القبيل مدح الناس بالباطل طلبا لعرض من أعراض الحياة الدنيا وفى هذا المعنى يقول ابن مسعود صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ان الرجل ليغدو بدينه ثم يروح وما معه منه شيء : يلقى رجلا لايملك له نفعا ولا ضرا فيقول له يمدحه ويزكيه والله انك لكيت وكيت ، فلعله أن يرجع ولم يحل (يعنى لم يظفر) من حاجته بشيء وقد أسخط الله تعالى عليه ثم قرأ ابن مسعود رضى الله عنه : « ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به اثما مبينا»

⊙❖⊙

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة متجه الحديث فيها الى طائفة معينة فى الناس الذين عاصروا — ابان الوحى — نزول القرآن .. وهذه الآيات مع ذلك ذوات طابع عام ، وواصفات قانون شامل ، لايشذ عنه أحد ، ولا ينفلت منه عصر ، ولا ينبو بموضعه مكان .

وهذه الآية : ((**بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**)) هذه الآية هى واحدة من تلكم الآيات ذوات الاحكام الشاملة ، والقواعد العامة ، والقوانين المستوعبة .. وان تكن فى نظم القرآن الكريم ومساق الحديث فيه متوجهة الى طائفة من اليهود صور لهم غرورهم أنهم أحباء الله تعالى، وان الله **محابيهم** ، وأنه لايعاملهم بما يعامل به سائر الناس .

وقد صور القرآن تمادى الغرور بهذه الطائفة من خلق الله ، فروى عنهم — وهو الصادق المصدوق — أنهم لم يجدوا ثقل الجريمة ؛ ولم يستشعروا قط تأنيب الضمير وهم يستغلون العرب منذ القدم أسوأ استغلال ، ويستغفلونهم — فى جاهليتهم واسلامهم — أقبح استغفال ، بل كانوا يرون ذلك شيئا لاخطر له ، ولابأس به ، ولا اثم فيه . فذلك قول الله عنهم فى آية أخرى : ((**ومن اهل الكتاب — يعنى اليهود — من أن تأمنه بقنطار يؤده اليك ومنهم من أن**

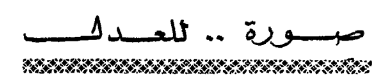
تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا ما دمت عليـــه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الاميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »

ثم زاد القرآن هذه الصورة المغرورة وضوحا وقبحا فذكر عنهم أنهم ان وجدوا بعض الحرج فى تصرفهم فانهم يعترفون بتعرضهم لسخط الله ، ولكنهم مع ذلك يصرحون بأن الله تعالى اذا شاء أن يعاقبهم فلن يعاقبهم الا بأيسر اليسير ، وأقل القليل ، فذلك قول الله تعالى فى الآية الكريمة : « **وقالوا لن تمسنا النار الا أياما معدودات** » .

ومن هنا تجىء هذه الآية شاملة عامة تقرر أن الذين يتناولون السيئات تناولا لا حرج معه ، ثم يدعونها تتحكم فيهم وتستبد بهم ، معرضون أشد التعرض لأقسى ألوان العذاب ، ويجىء مساق الآية كمســـاق الحكم المسلمة : « **من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النارهم فيها خالدون** » وهى تعطى على غاية الوضوح ودون استثناء أن أطول العذاب مدى وأبلغه شدة واقع بأولئك الذين يأتون سيىء العمل بغير كلفة ويقبلون عليه فى غير تحرج ، ويأنسون به كما يأنس الخير بما يكسب من خير ، فهم قائمين أو قاعدين ، وناطقين أو صامتين ، لا تراهم الا والخطيئة معهم حديث نفس أو حركة لسان ، أو نجى مجلس ، أو رفيق طريق .

وعلى هذا تكون الخطيئة على نوعين : نوع يكسبه صاحبه وهو ميت الضمير فاقد الحس لا يشعر به الا كما يشعر الرفيق برفيقه والسعيد بسعادته ، وأقسى العذاب لهذا اللون من الناس يهودا كانوا أو غير يهود ... ونوع آخر يقترفه المرء مغلوبا على أمره ثم لا يلبث أن يعود الى ضميره يؤنبـــه والى مولاه يستغفره ، ورحمة الله من هؤلاء قريب ، والخير لهم مقـــــدور ، وذلك هو قول رســـول الله صلى الله عليه وسلم : « كل بنى آدم خطاءون » وخـــير الخطائين التوابون » .







ليس فى الدنيا شىء كالعدل .. تطمئن اليه النفس .. ويتوافر به الامن ، ويسعد فى ظله المجتمع .



هو العدل ، والعدل كلمة طال ألف الناس اياها بكثرة مادارت على الالسن وأديرت فى الاسماع وقد أضعف الالف حقيقتها فغدت فى المجتمع الانسانى لفظا بغير معنى او جسدا بغير روح ، وليس فى الدنيا شىء كالعدل : تطمئن اليه النفس ، ويتوافر به الامن ، ويسعد فى ظله المجتمع ، وسوف تظل الانسانية حائرة السعى خائرة القوى فى ادراك ظل من الراحة حتى يكون العدل همها الاكبر وهدفها المقصود ، وليس فى الدنيا شىء كالعدل عنيت به الرسل وأقيمت عليه شرائع النبوات .

ومن أدب القرآن الكريم قوله تعالى : **((يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، ان يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما . فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيرا)) .**

وفى هذه الآية يأمر الله عبـــاده المؤمنين أن يطلبوا الغاية فى القيام بالعدل والاستقامة ، ومن أشد ألوان العدل القيام بالشهادة على وجهها دون نظر فى أداء الشهادة الى والد أو ولد أو غنى أو فقير أو منتفع أو متضرر فذلك وحده هو طريق الله وذلك وحده هو ماتنتظم عليه أمور الحياة .

وفى آية أخرى ينهى القرآن عباد الله المؤمنين أن يتأثروا فى أداء الشهادة وفى اقامة العدل بالبغض والشنآن فذلك حيث يقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولايجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون » .

ويلذ للمسلم هنا أن يجد هذه الصورة من تحقيق العدل فى سلوك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مخالفين فى ذلك أهواءهم نزولا على حكم مولاهم فقد بعث النبى صاحبه عبدالله بن رواحه الى أهل خيبر من اليهود ليقسم بينه وبينهم ثمارهم وزروعهم فأرادوا أن يرشوه ليرفق بهم فقـــال لهم : والله لانتم أبغض الخلق الى .. قتلتم أنبياء الله وكذبتم على الله .. وليس يحملنى بغضى اياكم على أن أحيف عليكم ، هذه عشرون ألفا من تمر فان شئتم أخذتموها أنتم وان أبيتم أخذتها أنا. فقالوا ، قد أخذنا. ثم قالوا : بهذا الانصاف قامت السموات والارض .

والله تعالى يكره لعبده المؤمن أن يجاهر بكلمة سيئة ويعالن بقول قبيح . والله تعالى لايعزب عن علمه مثقال ذرة فى السماء ولا فى الارض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر الا فى كتاب مبين .

وقد أباح للمظلوم أن يدفع عن نفسه ظلم من ظلمه ، فرماه بالكلمة الخشنة والعبارة القبيحة ، على أن يتحرى فى ذلك الحق فلا يتجاوزه الى كذب مفترى وعيب مختلق والا ضل سعيه وقدح وزره وكان فى سبيله هذه شرا من ظالميه .

يقول الله تعالى : **« لا يحب الله الجهر بالسوء من القول الا من ظلم وكان الله سميعا عليما »**

والذين يتأملون أدب الله تعالى فى كتابه لعباده ، يرونه قد جعل للمظلوم منزلتين :

فأما واحدة فان يجاهر بالقول السيىء من ظلمه .

واما الثانية فان يعفو ويصفح مسلما الى ربه وجهه وهو يلتمس منه الدافع والنصير .

والى المنزلة الاولى منزلة الاعتداد بالنفس تشير الآية الكريمة : **« ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل »** . ويشير الحديث الشريف وهو أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له يارسول الله ان لى جارا يؤذينى . فقال له النبى اخرج متاعك فضعه على الطريق ، فأخذ الرجل متاعه فطرحه على الطريق ، فكل من مر به يقول : يافلان مالك ؟

فيقول له ان جارى يؤذينى .

فيقول المار : أخزى الله جارك ما أحقه باللعنة .

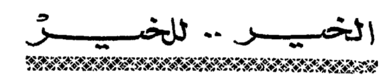
يقول راوى الحديث : فلما أكثر المارة من هذا القول جاء اليه جاره وقال : ارجع الى منزلك فوالله لاأوذيك بعدها ابدا .

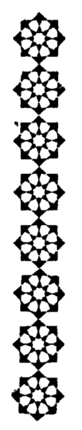
والى المنزلة الثانية منزلة التفويض الى الله واللجأ اليه تشير الآية الكريمة : **« أن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن سوء فان الله كان عفوا قديرا »** والتخلق بأخلاق الله أجمل وأجل ، والعفو أقرب للتقوى .

وقد اجتمعت المنزلتان معا ، منزلة الاعتداد ومنزلة التفويض ، فى آية من كتاب الله حيث يقول جل شأنه :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فاجره على الله انه لا يحب الظالمين » .

على ان منزلة تفويض الامر الى الله والتسليم له واللياذة به أشد فى أدب القرآن وضوحا وأسلم عاقبة من حيث كانت خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم على مايشير اليه قوله سبحانه : « خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين » وقال تعالى وعز : **« فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين »** .





اعمال الانسان تنشأ أول ما تنشأ فى النفس .. ثم تأخذ طريقها الى سلوك الانسان ظاهرة فى وضوح .. أو متسترة فى خفاء . وهى فى صورتيها خاضعة لمحاسبة الله .

إذا لاحظنا أنفسنا ونحن نأتى عملا من أعمالنا ، ادركنا أن العمل الاختيارى يبدأ فى صدورنا أول ما يبدأ تصورا ، ثم يستحيل عزما ، ثم يتمثل سلوكا ظاهرا أو خفيا ، وحسنا أو قبيحا ، لا فرق فى ذلك بين أعمال القلوب كالايمان والكفر والنفاق ، وبين أعمال الجوارح كايذاء الخلق وافتراء الكذب ، وبذل المعروف .

فلكل عمل بالنسبة الى عامله منطقتان ، احداهما داخل حدود نفسه ، والاخرى خارج هذه الحدود ... فاذا اعتزم الانسان أن يعتنق الايمان بدين من الديانات ، أو رأى من الآراء ، أو مذهب من المذاهب ، كشف عن هذا الايمان بأعمال وتصرفات تدل عليه وتشير اليه ، أو كتمه فلم يقم عليه دليلا ، كما يقول الله تعالى : ((**وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله**)) .

واذا أراد انســان أن يؤذى آخر ، أخرج ارادته هذه فى صورة واضحة حينا وصورة خفية حينا آخر ، كما تشير الى ذلك الآية الكريمةاشارة تنتظم الامرين : **((يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ..))**

واذا أراد انسان أن يبذل من ماله لذى عسرة فقير ، أبدى ارادته هذه فى معونة سافرة ظاهرة أوأخرى محجبة خفية ، على ماتشير اليه فى وضوح الآية الكريمة : **((أن تبدو الصدقات فنعما هى وأن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ...))**

فهذه الاعمــال تنشأ أول ماتنشأ فى النفس ثم تأخذ طريقها الى سلوك الانسان ظاهرة فى وضوح ، أو متسترة فى خفاء ... وهى فى صورتيها هاتين خاضعة لمحاسبة الله عز وجل ، والله تعالى بعد ذلك غافر لمن يشاء له الغفران ومعذب من يشاء له العذاب .. والذى له مافى السموات وما فى الارض ، لهتمام الملك ، والذى يعلم ماخفى من تصرفات النــاس وما ظهر ، له تمام العلم ، والذى يغفر حين يريد الغفر ، ويعذب حين يريد التعذيب ، له تمام القدرة ، وليس ذلك ولا شىء منه الا لله رب العالمين .

على هذا الضوء من هذا الفهم ، وان كنا نؤمن بكتاب الله على مراد الله تعالى منه نتلو الآية الكريمة: **((لله مافى السموات وما فى الارض وان تبدوا ما فى أنفسكم او تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير))** .

والناس يأتون من الاعمال مايأتون بدوافع من طبائعهم ، تحرضهم دائما على الجد فى تحصيل مايوفر لهم ملذات الحياة ومسراتها ، وهم فى اتجاهاتهم هذه لاينظرون الا الى أنفسهم ، ولا يتحرون الا خالص منافعهم دون نظر الى من عداهم من سائر المخلوقين .

ثم ان هم نظروا الى غيرهم نظر عطف أو رعاية واهتمــام ، فانما يفعلون ذلك ناظرين اليه من خلال نظرهم الى أنفسهم أيضا ، يطلبون بذلك الذكر الحسن والثنــاء الجميل ، واذلال الاعناق بأثقال المنن ، واستعباد النفوس بصنائع المعروف .

كذلك كان الناس مذ كانوا ، وكذلك يكونون مابقيت لهم طبائعهم التى صيغوا منها ، وظلت لهم دنياهم التى يعيشون فيها ، الا قلة قليلة تحتل بين سائر البشر مكان الشعرات البيض فى الثور الاسود ، أو موضع المصباح الخافت فى خضم الليــل البهيم .. هم أولئك

المصلحون الذين سلمت فطرهم ، وارتفعت بهم على المعروف المألوف من طبائع البشر ، فهم يأتون الخير حبا فى الخير ، ويصنعون الجميل ارتياحا الى الجميل .

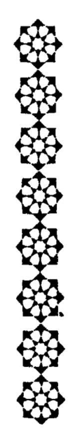
فاما الاعراض عن الاثرة الى الايثار ، وعن الجشع الى القناعة ؛ وعن الشح المطاع ، والهوى المتبع ، فان الكثرة الكاثرة من أولاد آدم وحواء ، لاتنقاد اليه ولا الى شيء منه الا بالرغبة فى المثوبة والرهبة من العقوبة ، مهما يكن مصدر الثواب والعقاب ، قانونا تقوم على امضائه حكومة نافذة السلطان ، أو دينا تفجر ينابيعه فى نفس المؤمن حقيقة الايمان .

ومن هنا وضحت حاجة الدنيا الى الدين ، واستعلنت فيه نعمة الله على العاملين ، وجاء محمد رسول الله — عليه السلام — بكتاب كريم . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد داعيا الى الايمان باليوم الآخر دعوة لا يبح لها صوت ، ولا يخفت لها نداء ، فى وعد قاطع للمحسن بالحسنى ، ووعيد صارم للمسيء بالسوء .

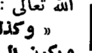
وكلمة التقوى فى هذا الكتاب العزيز تجيء حينا مضافة الى الله عز وجل : ((**ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون**)) ، وتجيء حينا مضافه الى الفتنة : ((**واتقوا فتنة لاتصيبن الذين ظلموا منكم خاصة**)) ، وتجيء حينا مضافة الى يوم القيامة : ((**فكيف تتقون ان كفرتم يوما يجعل الولدان شيبا**)) ، وتجيء حينا مضافة الى النار : ((**فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة**)) ؛ وهى حيثما ذكرت بالجزاء على الاعمال ، وصرفتهم الناس عن التعلق بالمخلوق الى التعلق بالخالق ، وساقت مطاياهم الى ابتغاء الخير ممن يملك وحده الخير ، والى التماس النجاء ممن يملك وحده النجاء ((**يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم**)) .



القصـــد .. والاعتدال



ان القصد والاعتدال هما
خصيصة الاسلام الاولى ..
وان الغلو والابتذال هما
خصمه الالد .



الله تعالى :
« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »

الحقائق المعنوية المواثل للاذهان مثل الحقائق المـادية الثوابت فى العيان ، كلتاهما لها طرف أبعد ، وطرف أدنى ، وطرف وسط بين الطرفين .

والناس فى خضوعهم لحكم الفطرة ، أو مسايرتهم لوصايا الدين على ثلاثة أصناف :

فمنهم صنف تذهب به طبيعته أو يذهب به دينه ومذهبـه الى ابعد الأطراف فهو غال شديد الغلو .

ومنهم صنف ثان تذهب به طبيعته أو يذهب به دينه ومذهبه الى

أدنى الاطراف ، فهو مترخص شديد الترخص ٠

ومنهم صنف ثالث تذهب به طبيعته ، أو يذهب به دينه ومذهبه الى منزلة وسطى بين المنزلين ، فلا هو الى الغلو ، ولا الى الترخص ، ولكنه على أحسن ما يكون من نشدان أوساط الامور والاخذ فى طرائق الاعتدال ٠

والفضيلة الخلقية فى اعتبار أهل النظر هى وسط بين طرفين كل منهما رذيلة ٠ فالشجاعة ــ وهى صفة محمودة وخلق كريم فى كل الاعراف وعند جميع الامم والشعوب ــ ان هى الا وسط بين طرفين ، فان هى جاوزت منزلتها هذه فبلغت الطرف الاعلى كانت تهورا ، أو بلغت الطرف الادنى كانت جبنا ، وكلا الامرين ، الجبن والتهور رذيلة ٠

والجود ــ وهو من أجل الاخلاق وأكرمها على الله وعلى الناس ــ ان هو الا وسط بين طرفين ، فان هو جاوز حده اللائق به ذاهبا الى أعلى ، فهو سرف ، وان هو جاوز هذا الحد الى أسفل ، فهو بخل ، والسرف والبخل كلاهما رذيلة ٠

والعرب تستعمل كلمة وسط استعمالا حقيقيا لتدل بها على مكان الشيء بين الشيئين ، فهم يقولون « جلس فلان وسط الدار » ويقولون « توسطت الشمس السماء » ٠ ويقولون « واسطة العقد » ، للجوهرة التى تمتاز فى العقد من سائر أخواتها عن يمين وشمال ٠

وربما قال أهل البصر بمعانى القرآن فى كلمة « الوسطى » من قول الله تعالى **« حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى »** ، انها هى صلاة العصر ، من حيث كانت صلاة العصر وسطا بين الصلاتين اللتين يقبل بهما النهار فى الصبح والظهر ، وبين الصلاتين اللتين يقبل بهما الليل فى المغرب والعشاء ٠

وهذا الاستعمال الحقيقى لكلمة وسط ، وما يشتق منها ومعها يقارنه فى اللغة استعمال الكلمة استعمالا مجازيا ٠٠ واذا كان المعنى الحقيقى لها دالا على وجود الشيء بين شيئين ، فان المعنى المجازى يدل على الخيرية والسبق فى الفضل ٠ ومن هنا نراهم حين يمدحون يقولون « فلان وسط فى قومه » وهم وسط وأوساط يعنون أنهم خيار ، ويقولون « هو أوسط قومه حسبا » يعنون أنه فى قومه كريم ٠ وفسر فقيه بصير الصلاة الوسطى بأنها هى الصلاة التى يزامل فيها خضوع القلب حركات الجوارح ٠

وهــذا التقارن بين المعنى الحقيقي والمعنى المجــازى للكلمات « وسط » و « أوساط » ، و « وسطى » يدل على أن الخــير فى التوسط والاعتدال بعيدا عن الافراط والتفريط ، ويؤيد الذهاب الى هذا المعنى ما يروى من أدبنا المـأثور عن النبى صـلوات الله عليه « خيار الامور أوساطها » ، وما يروى عنه عليــه الصــلاة والسلام « أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما . وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما » .

وهكذا تكون كلمة « وسطا » فى الآية الكريمة « **وكذلك جعلناكم أمة وســطا** » صـــالحة للمعنيين جميعـــا ، المعنى الحقيقي والمعنى المجازى على أن يكون معنى الآية هو أن الله تعالى جعل الامة العربية الاسلامية أمة خيرة ، عريقة فى الخير . وبهذا التفسير تلتقى مع الآية الاخرى « **كنتم خير أمة أخرجت للناس** » ، وذلك بالنظر الى المعنى المجازى ، وعلى أن يكون معناها الحقيقى هو أن الله تعــالى جعل هذه الامة فى منزلة وسطى بين المنزلتــين فلا هى الى الغلو المفرط ، ولا هى الى التهاون المفرط كما هو شأن غــيرها من الامم الاخرى .

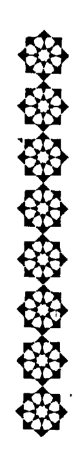
ومن أجل هذا كانت هذه الامة الخيرة ، بما معها من المعــانى الكبيرة والمبادىء الرفيعة ، والغايات العظيمة شــهيدة على غيرها من الامم ، وكان المنتسبون اليها شهداء على الناس ، يبينون لهم طريق الخير كلما جهلوه ، ويعملون على ردهم اليه كلمــا انحرفوا عنه .

ان القصد والاعتدال هما خصيصة الاسلام الاولى ، وأن الغلو والابتذال هما خصمه الالد ، والذين يتناولون عقــائد الاســلام وشرائعه تناول الواعى الفقيه يتبــين لهم ذلك تبينــا لا يشوبه غموض ، ولن تستطيع الامة العربية الاســلامية أن تظفر بالمنزلة الكريمة التى هيأها الله تعالى لها الا اذا عاذت بربها ولجأت اليه ، والا اذا ألقت الى العدالة الاجتماعية مقاليد ســلوكها فى الحياة وتصرفها على الارض كما يقول الله تعالى :

« **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين** » .

عند ذلك فقط تكون هذه الامة أمة وسطا شــهداء على الناس ، كما أحب الله لها أن تــكون ، ودون ذلك لن ينفعهــا الهرج باسم الاسلام ولو أنفقت كنوز الارض ، ولو تحدث الهراجون فيها عن الاسلام حتى يبلغ حديثهم أبعد مما تبلغ محطات الاذاعة .

خصــائص النفــاق



ان شر ما نطوى عليه الصدور النفاق .. وان شر ماتصاب به المجتمعات المنافقون .. وكان اسلافنا الصالحون تضيق صدورهم باهل الملق .. وتنبسط قلوبهم لاهل النصيحة .

الناس من حيث معتقداتهم ومذاهبهم في الحياة ثلاثة أنواع :

فنوع منهم يتلقى بالصراحة والتصديق مايعرض له أو يعرض عليه من دين أو مذهب ، أو رأى ، وهؤلاء يعرفون باسم المؤمنين .

ونوع ثان يتلقى بالرفض والجحود مايعرض له أو يعرض عليه من دين أو مذهب أو رأى ، وهؤلاء يعرفون باسم الكافرين .

والنوع الثالث يعيش حياته أو بعض حياته فى صورتين متناقضتين فله ظاهر وباطن ، وما يجرى على لسانه أو يتمثل فى سلوكه ينكره قلبه أقوى انكار ، ويجحده عقله أشد جحود . وهؤلاء يعرفون باسم المنافقين .

وهذه الآية الكريمة من كتاب الله عز وجل :

« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون »

تصف أولئك المنافقين فى عهد الرسول أوضح وصف وابينه ، وهم الذين كانوا يعايشونه عليه السلام زمن النبوة ، ويساكنونه فى مشرق الاسلام .. وقد كان صلوات الله عليه ضائق الصدر بهم ، شديد الحرص على نجاة المجتمع الوليد من شرورهم ومكائدهم ، ومع ذلك كان عليه السلام حريصا أشد الحرص عليهم ضنينا أكبر الضن بحياتهم ، يتقى بهذا الحرص شرا لاخير فيه ، ويستدفع بهذا الضن ضرا لا نفع معه . فعن جابر بن عبد الله قال : « أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم متصرفة من موقعة حنين وفى حجر بلال فضة ورسول الله يقبض منها ويعطى الناس .. فقال الرجل يا محمد اعدل فقال : ويلك ، ومن يعدل اذا لم أكن أعدل ، لقد خبت وخسرت ان لم أكن أعدل . فقال عمر رضى الله عنه الا تركتنى يارسول الله أقتل هذا المنافق ؟ قال عليه السلام معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى ، ثم قال عليه السلام ان هذا واصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، ويمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية .

> **ان شر ما تطوى عليه الصدور النفاق ، وان شر ما تصاب به المجتمعات المنافقون ، وقد يكون النفاق حلوا فى الافواه سائغا فى الاسماع ، وقد تكون المصارحة مرة شديدة المرارة ومؤلمة شديدة الايلام ، ولكن عاقبة النفاق أبدا تسلم الى شر مستطير ، وعاقبة المصارحة دائما تنتهى الى خير كثير ..**

ومن هنا كان أسلافنا الصالحون تضيق صدورهم بأهل الملق . وتنبسط قلوبهم لاهل النصيحة .. يروى التاريخ أن واحدا من أهل الملق هؤلاء قام مقام ثناء على على كرم الله وجهه فقال وأطال القول ، وأثنى وبالغ فى الثناء ، فقال له على رحمه الله : « أنا فوق ما فى نفسك ودون ما تقول » .. ثم قال اللهم اغفر لى ما لا يعلمون . واجعلنى خيرا مما يظنون .

⊙✣⊙

وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تحدثت عن المنافقين ، وخلعت عليهم صفات لا تتخلى عنهم ولا يتخلون عنها فى كل زمان ومكان .

وأولى هذه الآيات فى كتاب الله تعالى وعز تعرضت لمذهب النفاق نفسه ، وبينت أن النفاق مشتمل على أربع خصائص تلزمه أشد لزوم وتجرى معه فى كل طريق ، فالمنافق كاذب . والمنافق مخادع .

والمنافق عاقبته التكشف والظهور . والمنافق لا يشعر بما تنطوى عليه نفسه من رذائل ، وما يجره اليه عمله من مخاطر .

وهذه الخصائص كلها تضمنتها الآية الكريمة :

« ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون » .

وفى آيات أخر تبيان لاحوال المنافقين وتجلية لاخلاقهم وتصرفاتهم وما تنطوى عليه صدورهم . فالمنافق دائما له وجهان : وجه يلقى به اولياءه ، ووجه يلقى به أعداءه ، فهـــو مع المصلحين يتمزق غيره على الاصلاح ، وهو مع المفسدين يهزأ معهم بكل دعوة اصلاح كانت أو تكون الا أن يستجلب بها نفعا أو تجرى مع هواه الى غرض . وهذه الصورة الكريهة تضمنتها الآية الكريمة :

« واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزئون » .

والمنافقون دائما يتواصون بكتمان الحق الذى يعرفونه ضناً به على أعدائهم من دعاة الخير حتى لا يحصلوا عليه ولا ينتفعوا به ، وذلك هو ما تشير اليه الآية الكريمة :

« واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون » .

والمنافقون على غاية الجبن والكراهية لمواطن الكفاح ، وهم مع ذلك أبعد الناس عن مواطن الخير ، وأقربهم الى سوء الحديث وطول اللسان ، وعن هذا الشر فيهم تتحدث الآية الكريمة :

« قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لاخوانهم هلم الينا ولا يأتون البأس الا قليلا ، أشحة عليكم فاذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون اليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت فاذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئــك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمــالهم وكان ذلك على الله يسيرا » .

كذلك كان المنــافقون ، وكذلك هم ، وكذلك يكونون ، وحــدة مذهب ، وصــورة حال فى مجالات العقائد ، والمذاهب والسياسة ، والاجتماع . ولن يسلم من كيدهم ويخلص من شرهم الا من يلجأ الى الله يستعين به عليهم وعلى نفسه حتى لاتركن اليهم والى ما امتــازوا به دائما من معسول القول ، وبريق الخداع .





هو اخي . لانه جعل فنه قوة معبرة عن الكمال والجلال فى الدين الذى ادين الله عليه فأعطى المسلم معنى جديدا للحيــــاة غير المعنى الذى لونته الجهالات المتوارثة ، أو المعنى الذى لطختــه فتن الحياة الحديثة فى زماننــا هذا .



معـــاشرتي لشـــــاعرنا العبقرى العظيم فان الله لم يكتب له ــ كما كان هو نفسه يتمنى ــ أن يكون عربي اللسان عربي الشعر . فكانت معاشرتي اياه فيما ترجم من شعره وهو قليل من كثير . ومهما تبلغ ترجمة الشعر من الدقة والسماحة فانه لايمكن أن تنقل الينا تلك النفحة العلوية التى تمس حروف اللغة فاذا هى فتنـــة من فتن العقول وســـحر أخاذ من سحر القلوب والنفوس ، وهــذا الســـحر الطاغي الذى يتلبس بالشعر فيفتن العقول ويسحر القلوب والنفوس هو البيان ، وهو شطر الشعر ، وان المرء ليغلو فى نشوته أحيانا فيقول انه هو كل الشعر

وليس من الهين أن ينقل شعر شاعر من لغة الى لغة فيظل محتفظا ببهـــائه وفتنته محفوفا بسحره وبيـــانه على نفس الوجه الذى كان

عليه فى لغته الاصلية ، أجل قديكون ممكنا أنيترجم شعرالشاعر فى بيـان جديد رائع ولكن أشك كل الشك أن تستطيع الترجمة أنتنقل الىروح شاعر نقلا يغنينىعن معرفته فىلغته أو يعرفنى به تعريفا قريب الشبه بمعرفتى اياه اذا أتيح لى أن أقرأه فى لغتـه مشمولا بسحر اللفظ وروعة الجرس وبراعة الأداء ٠

وقد وقفت على بعض الشعر المترجم ، وهو شعر رجاليذكرون فى لغاتهم فى نوابغ الشعراء فلماقرأت شعرهم مترجما خيل الى أن الترجمة قد أنزلتهم عشر درجات دون المنزلة التى حلوا بهـا عنـد أهل لسانهم ٠

أما اقبال فقد أتيحله شاعر ترجم شعره بروح الشعر فانه بعد هذا كله بقى له عندى سحر آخركان سببا فى عقد أواصر الاخوة بينى وبينه وان قلت عشرتى له ٠

ومنذ قرأت ترجمة شعره صرت أسر بحضرته ، وآنس بقـربه ، وتأخذنى النشوة حين أسمع ذكره، وأزهى بهذه الأخوة النبيلة التى عقدها الشعر بينى وبين هـذا الانسان العظيم ٠

والأخوة بينى وبين اقبال أخوةمتشعبة كثيرة الفروع ٠٠ متشعبة بقدر شعره من الرحابة والتشعبفهو أخى لأننى وجـدت فى شعره تعبيرا نبيلا ساميا عن قيمة الانسان فىهذه الحياة الدنيا ٠ وعنقواه المذخورة فيه ٠ وعن الكرامة التىكرمه بها ربالعالمين فسخر له مافى السموات وما فى الارض ، وسخره هو فى عبودية رب السـموات والارض وهى العبودية التى ينتهىاليها أقصى ماتبلغه حرية الاحرار٠

وهو أخى لأنه جعـل فنه قوة معبرة عن الكمال والجلال فى الدين الذى أدين الله عليه ، فأعطىالمسلممعنى جديدا للحياة غير المعنىالذى لوثته الجهـالات المتوارثة أو المعنىالذى لطخته فتن الحياة الحديثة فى زماننا هذا ٠

وهو أخى لانه نشأ فى الهند ونطق بلسان الهند و فارس ، ثم هـو مع ذلك عربى النفس عربى الهوى عربى الفطرة ، لا بل هو أحـد

القلائل الذين كشفوا للعرب المحدثين وللمسلمين عامة عن حقيقة ماضيهم ، وعن شوامخ مجد أسلافهم الغابرين ·

واذا شئت أن أنطلق فى بيان أسباب الأخوة التى عقدها الشعر بينى وبين اقبال فمعنى ذلك أن أعدد كل ماتناوله شعرهذا الشاعر العظيم ، وكان له فى نفسى صدى يتردد · وهذا بيان لا يسعه هذا المقام ·

واقبال عندى ليس شاعرا بالمعنى الذى تعارفه الناس فى فهم الشعر ·

انه قوة مبينة كان الشعر بعض أدواتها . كان قوة مبدعة ، وليس أدل على ذلك من أنه بهذا الشعر قد استطاع أن ينفث فى ملايين القلوب من المسلمين فى الهند حركة جديدة ترمى الى انشاء دولة مسلمة . فماجت هذه الملايين بالاشواق وتفطرت بصائرها عن همم الاتحد حتى انبعثت الدولة التى تغنى بها ، ونفضت عنها غبار القرون ، وصارت حقيقة ساطعة بعد أن كانت عند الناس خيال شاعر .

واذن فلم يكن شعر اقبال شعرا مجردا فحسب ، بل كان قوة سياسية مبدعة استطاعت أن تحقق فى زمن قليل مالم يستطع الساسة والمفكرون فى الزمن الطويل ·

ينبوع الشعر

ومعنى ذلك أن اقبالا قد شق للشعر طريقا جديدة · كان الشعر تعبيرا عن آلام الشاعر وأشواقه · أو تعبيرا عن آلام أمته وأشواقها فجاء اقبال فجعل الشعر ينبوعا متفجرا يقبل اليه الظماء ، فاذا ارتووا تفتقت بهم معانى القوة والسمو والفهم والايمان ، فاذا كل من طعم منه استدار خلقا آخر غير الذى كان . واذا هو همة لا تعرف الكلل ، وصبر لا يعرف الجزع ، واقدام لا يعرف التهيب ، وصراحة لا تعرف الرياء ، وصدق لا يعرف الكذب ··· كان فى هذا الينبوع قوة موحية بالنبل والسمو لها فى كل نفس أسلوب

للاحياء . وفى كل قلب وسيلة للبعث . واذن فلم يكن سمو بيانه لهوا بل كان جدا خالصا لا يحول بينه وبين القلوب ما فى الجد من مشقة وعنت .

وهذه الطريق الجديدة التي شقها اقبال للشعر كانت نتاجا لصراع عنيف بين عقل منظم قادر على استيعاب مذاهب الفلسفة قديمها وحديثها ، وبين قلب مؤمن بالله رب العالمين وكانت أبعث لصراع أشد عنفا بين ماض مشرق لأسلافه المسلمين ، وحاضر مظلم لعشيرته وأهل دينه فى العصر الذى يعيش فيه .

ويخيل الى أن آقبالا خرج من هذا الصراع مثخنا بجراحه ، ولكن الجراح التى مسته وآذته لم تضعف همته ، ولم تلفته عن النور الذى كان يتراءى له ، فتشبث ببقايا الهمة المريحة ، وتعلق بلوائح النور البعيد ، وظل يجاهد برجولة واخلاص ودأب وصدق حتى عادت بقية الهمة نارا ملتهبة بين الضلوع وحتى صارت لوائح النور البعيد اشراقا ساطعا يضيء جنبات الوجود بنور ينساب فى الوهاد والبطاح ويغشى القمم وينحدر فى أعماق الأودية .

ويومئذ تكشفت لاقبال أسرار الوجود الماضى والوجود الحاضر . وانقشعت عنه غمامة الآلام التى لقيها فى صراعه العنيف واهتزت نفسه الشاعرة عن نهج جديد لشعره العبقرى .

ولكن من الظلم لاقبال ومن الظلم للحق أن أرسم هذه الصورة لشاعرنا المسلم العبقرى دون أن أبين سر هذا الفتح الجديد فى تاريخ الشعر . ففى هذا الصراع المر العنيف لم يكن لاقبال ملجأ ولا ملاذ الا كتاب واحد وهذا الكتاب هو كتاب الله القوى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، كذلك لم يكن لاقبال مثل يقيس عليه الا مثل واحد هو المثل الذى ضربته الأمة المسلمة الأولى فى تاريخ هذه الدنيا .

ظل اقبال فى صراعه يتدبر آيات ربه وروائع الحكم فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم . ويُطيل التأمل فى تاريخ الأمة التى اتخذت كتاب الله نبراسا حتى انشقت ظلمات الفكر عن النور

الغامر وجاشت الانوار فى قلبه وترامت به أشواق سريرته ثم انفتق لسانه بالبيان الرائع مستمدا قوته وروعته من البيان المعجز الذى أنزله الله تبيانا لكل شىء وهدى لكل حضارة وشفاء من كل داء ·

وما نسميه نحن فلسفة اقبال هو فى الحقيقة قبس من النور الأعظم الذى يتوهج فى كل آية من كتاب الله ·

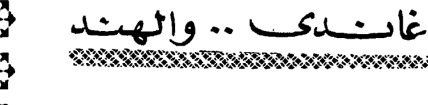
وما نسميه نحن قوة مبدعة فى اقبال هو فى الحقيقة نفحة من نفحات الرسالة العظمى التى بعث الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم ·

واذا كان الشعراء كما يقولون يستوحون شياطين الشعر فان اقبالا كان يستوحى النور الحق الذى قامت به السموات والارض ·

ومن أجل ذلك كله كان اقبال حبيبا الى كل قلب انسانى صادق· حبيبا الى كل قلب مسلم · حبيبا الى كل نفس ظامئة بأشواق مبهمة الى مستقبل ينقذ البشر من الطغيان والشر ويرد الى الانسان كرامته المفقودة فى لجج الصراع على الشهوات المستعرة ـ وسيظل اقبال فاتحا جديدا فى تاريخ طويل خلا من فتوح الفكر السامى فى ميادين الضلالة

ان اقبالا ثمرة من ثمار الايمان البصير · وسيبقى فى تاريخ الاسلام وفى تاريخ شعرائه ، وفلاسفته ، رائدا لم يكذب أهله ··· فرحم الله اقبالا وغفر له وجزاه عن أمته خير ما جزى صادقا بصدق ومؤمنا بايمان ومعلما بما علم الناس من خير ·





غاندى .. والهند

التاريخ لم يعرف سوى
غاندى زعيما دان له بالحب
مئات الملايين من البشر ..
والهند لم تعرف سـوى
غاندى زعيما اجتمعت به كل
طوائف الهنود على اختلاف
دياناتهم ومعتقداتهم .

من حق الزعيم الهنـدى غاندى علينا أن نحيى ذكراه ، ونحن نحيى الهند فى عيد استقلالها لانه صانع هـذا الاستقلال .

واذا كان الحديث عن الهند الجديدة يلقى قبولا عند أبنـاء شبه القارة . فان الحديث عن المهاتما غاندى يلقى أحسن القبول عند أبناء الامم جميعا . ومن أجل ذلك نمهد بكلمة عن هـذا الزعيم الانسان .

والحديث عن غاندى ليس بالسهل اليسير ، فجوانب عظمتـه عديدة ، وصحائف أمجاده كثيرة ، وأساليب كفاحه فريدة .

والتـاريخ لم يعرف سوى غاندى ، زعيمـا دان له بالحب فى حياته مئات الملايين من البشر .

والهند لم تعرف سوى غاندى ، زعيما اجتمعت به كل طوائف الهنود ، على اختلاف دياناتهم ومعتقداتهم ، وبرغم ما بينهم من عداوات ضارية وتعصب شديد ٠

والبشرية لم تعرف سوى غاندى ، زعيما انتصر له العالم كله ، ونال عطف الناس جميعا ٠

فكيف تكونت شخصية هذا الرجل العظيم ؟

كان غاندى سليل بيت كريم ، فأبوه كان رئيس وزراء اقليمه

وكان غاندى خريج جامعة يعدها الانجليز عريقة ٠ ويتيه بالانتساب اليها أبناء الخاصة وسلائل النبلاء ٠

وكان غاندى ربيب حضارة عريقة ، هى حضارة الهند التى تميزت بالروحانية النبيلة ، والتسامى على الشهوات ، والجود بالنفس فى سبيل العباد ٠

ومن هذه المقومات الثلاثة تكونت شخصيته الفذة ، وبتأثيرها تحددت أمامه معالم الطريق حين بدأ رحلة الكفاح ٠

فالى كريم منبته يرجع نفوره من الضيم حين هاجر الى جنوب أفريقيا ورأى سوء معاملة البيض للملونين ، وفيهم كثيرون من بنى جنسه ، فانحاز اليهم ، وطالب برفع الظلم عنهم ٠

وليس بعجيب أن يعنى غاندى قبل نيف وخمسين سنة بمشكلة الملونين ، التى هى مشكلة العالم اليوم ، فالعبقرى يسبق زمانه ، ويدرك مالا يدركه معاصروه ٠

والى معاشرته للانجليز ودراسته فى بلادهم ، يرجع فهمه لعقليتهم ، ومعرفته بطبائعهم ، ونجاحه معهم فى علاج الازمات ٠

والى روحانية الهند يرجع الفضل فى اجتنابه العنف واكتسابه القدرة على احتمال آلام النفس والجسم ، والصبر على البطش والقسوة ، حتى يئس منه أعداؤه بعد اسرافهم فى ايذائه ، حتى أكبره مواطنوه ، فنعتوه بالقديس ، وبالروح العظيم أو المهاتما فى لغة الهنود ٠

فلما قفل راجعا الى بلاده ، سبقته اليها شهرته ، وذاع في أرجائها صيته ، واستقبل بالحفاوة والتكريم ، فحفزه هذا العمل لوطنه ، وحمل راية الكفاح .

وأقام غاندى كفاحه على دعامتين :

أ ـ عدم التعاون .

ب ـ عدم العنف .

والاولى تحرم المستغلين مكاسبهم وتكسر شوكتهم .

والثانية تفرض على المكافحين التزود من المعنويات بما يكسبهم القدرة على الاحتمال ، والصبر على المكاره ، فيتعذر تسخيرهم عنوة للمستبدين .

ولما كان اكتساب الروحانيات يحتاج الى تربية وتدريب ، اتخذ غاندى صومعة له على غرار قرى الهنود ، عاش فيها مع تلاميذه عيشة طهر وزهادة وتقشف ، فكان يكتفى من الثياب بما يستر العورة ، ومن الزاد بما يسد الرمق ، ومن الرياش بما يقتنيه فقراء الهنود . وبذلك اندمج بكل كيانه فى الشعب الذى كرس نفسه لخدمته ، فأحبوه وعززوه ، وأسلموه قيادهم ، فعالج أدواءهم ، وآسى جراحهم وأخذ بأيديهم فى مدارج الروحانية ، فتألقوا بعد تفرق ، وتماسكوا بعد انحلال ، وأصبحت شبه القارة الهندية على قلب رجل واحد خلف هذا الزعيم العظيم .

وقد زرت الهند مرتين أولاهما سنة ١٩٥٥ وأنا مع الرئيس جمال عبد الناصر فى الطريق الى مؤتمر باندونج ، والثانية فى ١٩٦٥ ومعى أخى السيد المهندس أحمد عبده الشرباصى ونحن فى الطريق الى مشاركة طائفة البهرة فى تنصيب سيدنا محمد برهان الدين سلطانا على طائفة البهرة .

وقد لقيت فى الرحلتين أبناء الهند فرادى وجماعات ، فى جلسات محدودة وأحفال عامة ، كما لقيت كثيرا من وزرائها وتحدثت اليهم وتحدثوا الى فكنت دائما أرى فى شعب الهند شعب مصر وشعوب الامة العربية .. رقة حس ، ورقة عاطفة ، ونزولا على آداب

الضيافة ، وبذلا لكل ما من شأنه أن يسعد الضيف ويعزه ويكرمه.

ولقد أذكرنى ذلك بما قرأته وقرأه كثيرون غيرى فى كتب المسلمين وخاصة ما أشار اليه الشهرستانى فى كتابه الملل والنحل فقد قسم شعوب العالم الى قسمين قسم تقوم حضارته على الروح وهم العرب والهند وقسم ثان تقوم حضارته على المادة وهم العجم والروم ..

ولقد كنت كلما راجعت هذا النص الذى ذكره الامام الشهرستانى فى كتاب الملل والنحل ترجع بى الذاكرة الى قدماء المصريين وقد كانوا يقدسون البقرة بل يقول بعض العلماء أنهم كانوا يعبدون الاله الواحد الغيبى الازلى فى العجل أبيس أو فى قوة الاخصاب الحيوانى فيه ، كما كانوا يعبدون الاله الواحد الغيبى الازلى فى النيل أو فى قوة الاخصاب النباتى فيه .

والذين يذكرون ما دون فى كتب اللغة العربية يرون نوعا من التشابه بين نظرة الهنود الى البقرة وبين نظرة قدماء المصريين الى البقرة وبين نظرة الامة العربية الجاهلية الى البقرة ، وفى هذا المعنى يروى صاحب لسان العرب لشاعر من طىء .

لا در در رجال خاب سعيهم
يستمطرون لدى الازمات بالعشر

أجاعل أنت بيقورا مسلعة (يعنى أبقارا)
ذريعة لك بين الله والمطر

قال صاحب لسان العرب بعد رواية هذين البيتين من الشعر « وانما قال الشاعر ذلك لان العرب كانت فى الجاهلية اذا استسقوا «يعنى طلبوا المطر» ، كانوا يجمعون النبات المسمى السلع وآخر يسمى العشر بعد أن يجف ويربطونه الى أذناب البقرة أو يضعونه على ظهورها ثم يشعلون فيها النار ، فتضج البقر من ذلك فيمطرون . ولهذا كانوا يرون فيها جانبا من الجوانب الطيبة التى تستنزل المطر من السماء وتعين على جلب الخصب للمجدبين الجائعين ..

والى جانب هذا كله يرى السائح فى تلك البلاد العريقة روحانية الادب او أدب الروحانية ماثلا للاعين فى الوجـوه الفياضة بالطمأنينة والسكينة تغمر الوجوه والكلمات المطوية على الادب الجم والحس الدقيق تفيض على الالسن .

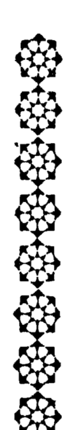
وأنت حين تجلس الى الهندى المثقف تستمع اليه نحس كأن الحديث يطوى لك الكون الواسع فى كلمات .

وقد يدرك محدثوك السؤال الذى يجول فى نفسك من غير أن تجشم نفسك عناء الســؤال . وعند ذلك تلقى الجواب الكريم الصادق العميق .

واذكر بهذه المناسبة اننى سعدت بمولانا أبو الكلام آزادوجلست معه فى قاعة فسيحة الجوانب تحمل صورا كبارا لحكام الهند من الانجليز . وكان معنا فى هذا المجلس سفير مصر الاسبق المرحوم اسماعيل كامل وقد أدرك مولانا أبو الكلام ازاد اننى ضائق بهذا المنظر الذى أراه ماثلا أمام العيون وهو فيما كنت أتصـور منظر يوحى بالذلة والخنوع والتصاغر أمام الحركات الثورية التى كانت تلتهب نارا يومذاك ضد الاستعمار والمستعمرين . ثم ما لبثت أن استمعت الى مولانا أبو الكلام أزاد وهو يقول : هذا الذى تنكره هو جزء من تاريخنا ولن يزول هذا الجـــزء من التاريخ اذا نحن نحينا هذه الصور عن الحيطان ولان يبقى ماثلا للعيـون عبرة لنا يسوقنا الى التماس أحسن الاوجه بصيانة حريتنا وينهنه الغرور عن نفوسنا خير من أن نزيله ونغمره فى التراب فنكون بذلك قد خدعنا أنفسنا وخدعنا التاريخ .

ولم أشأ يومئذ أن أناقش هذه القضية وان كنت فيما بعد سلمت بها ورضيت عنها ولم أجد من الضرورى أنها تحتاج الى مناقشة أو جدال .

تلك كلمات قصار أحببت أن أتخذ منها تحية للهند فى عيـــد استقلالها راجيا أن يصون الله وحدتها وان يتم عليها نعمة الرخاء والطمأنينة والحرية والاستقلال .



الأزهـــر .. جامعًا وجامعة

قد تجتمـــع أهواء على باطل .. فاذا الازهر مجحود الحق ، منكور الفضل وربما قال فيـــه ـ حتى اعرف الناس به ـ ما قال مالك فى الخمر وما تقول الحرية فى الاستعمار .



نضرع الى الله تعالى جل وعز أن تكون جميع خطوات جامعة الازهر ماكان فيها وما سيكون ماضية الى ذات الغاية الشريفة التى تغيــاها من قبل أبوها الجليل وشـيخها الوقور الجامع الازهر الشريف .

وما كانت غاية الجامع الازهر فى تاريخه الطويل الا دائرة فى مجال الدعوة الى الله وتبليغ رسالة الاسلام . ومن الميسور تلخيص هـذه الرسالة فى أمور ثلاثة : هى أجل ماتتطلع الانسانية فى كل مكان الى بلوغه والانتفاع بثمراته .

الامر الاول : مطاردة الشك والحيرة والزعزعة فى المجتمع الانسانى .. ومطاردة هذه الامور وامثالها فى هــــذا المجتمع ، تعنى مطاردة الشقاء ، فانه لاشقاء أبين من شقاء الحيرة ، حين تضطرب النفوس ،

وحين لاتثبت عليها العقائد . وقد حمل الازهر عقيدة الاسلام فى سماحتها وبساطتها ويسرها فمهد بها للناس طريق الاستقرار والطمأنية النفسية ، وأزاح عن كواهلهم أعباء الحيرة والقلق والاضطراب .

وعقيدة الاسلام فى بساطتها ويسرها وسماحتها تتلخص فى أن لهذا الكون الها واحدا لاشريك له ، وان ارادته فى الاصلاح والاسعاد والاسماء معلقة برسول عظيم هو خلاصة خلاصات النبيين والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم .

الامر الثانى : يتلخص فى أن الازهر وهو يبلغ عن رسول الله عليه السلام كان دائب الدعوة للناس الى أن يتحرروا من أثراتهم ونزواتهم ليمكن لهم أن يتحرروا من قاهريهم ومستعبديهم ، وقد تجمعت من حوله قوى كثيرة فى كل مكان ، تحمل راية الحرية الحقيقية ، التى تقرر ان العبودية لغير الله عبء لايطاق ، فلتحرر البشرية من كل عبودية سواها ، ولتخلص عبوديتها لله رب العالمين فان الناس سواء لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى .

وبهذا كان الازهر من طريق مباشر أو غير مباشر دافعا قويا فى المجتمع الانسانى الى أن يتحرر العبيد وان يستردوا كرامتهم الانسانية فى كثير من الافاق فى المجال العالمى البعيد والقريب .

الامر الثالث : ان الازهر الشريف كان دائب الهتاف بالناس أن يحتقروا عصبيات اللون والجنس ، فان الناس جميعا لآدم وآدم من تراب ، واذا كان لابد للناس أن يتفاضلوا فعليهم أن يتفاضلوا مما يقومون به من جليل العمل وما يقدمونه للانسانية من جلائل الخدم، فهناك لونان من طلب الفضل بين الناس : لون يقوم على العمل الصالح والجهد النافع ، ولون آخر يقوم على العصبية التى تعتز بالعرق والدم والجنس .

والعقل يمشى مع الاسلام فى هذا الطريق من حيث كان تفاضل الناس حين يتفاضلون يجب أن يكون قائما على ميسور ممكن تحصيله ، والجنس أو اللون ليس للانسان اختيار فى السعى اليه ، ولا فى الحصول عليه ، والا فهل يستطيع الاسود ان ينتقل من السواد الى البياض ، وهل يستطيع الهندى أن يكون فارسيا ، أو الفارسى أن يكون عربيا ؟ فقضية الجنس واللون والعرق من القضايا التى يشقى بها الناس شقاء لا مطمع لهم فى أن يزول ماداموا متمسكين بها وليس لهم السبيل الى الاختيار ، وليست لهم القدرة على التخير .

وبهذا دفع الازهر ــ وهو يبلغ عن رسول الله عليه السلام فى المجتمع الانسانى ــ دفعات من الخير الذى يدور حول نصرة المبادىء والغض من أقدار الاجناس والالوان ، وأدار معانى التفاضل كلها حول قوله تعالى : (**يأأيها الناس اناخلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم**) .

واذا كان الازهر الشريف وهو يحمل هــذه الرسالة الانسانية الجليلة ، مبلغا عن رسول الله عليه السلام قد أدى للناس كلهم هذه الخدم وكثيرا من اشباهها واخرج بجهده المشكور بشرا كثيرا من ظلمة الى نور ، واستنقذهم من شر الى خير ، وبعث الموتى أحياء ، ورد العبيد احرارا فى المحيط العالمى العريض ، فانه ــ أعنى الازهر ــ فى هذا البلد الكريم كان أبين نفعا وأجل خدمة واكرم ثمرا وأتم نعمة واحســانا .

وقد تجتمع أهواء على باطل ، وتنطوى صدور على ضغن ، فاذا الازهر على ذلك مجحود الحق منكور الفضل ، وربما قال فيه حتى أعرف الناس به واقربهم اليه وابينهم نعمة منه ماقال مالك فى الخمر وما تقول الحرية فى الاستعمار .

غير أن باطل الهوى وجامع الضغائن ليس فى مقدوره أن يطمس حقيقتين ، كبيرتين أفادت بلادنا عنهما من الازهر خيرا لا يدركه البلى ، واصابت مجدا لايلحقه النسيان .

وأولى الحقيقتين تتمثل فى هذا التجانس الفكرى الذى يستمتع به مواطنونا والذى يعيش آمنا فى ظله هذا البلد الامين ، وحتى لقد استحال على المذهبية الضيقة ان تجد لها منه معاقل وحصونا تلوذ بها الفتن وتحتمى الضغائن ، لتنطلق منها الحين بعد الحين ، قاضية على الوحــدة بالفــرقة ، وعلى التواصــل بالقطيعة ، وعلى الامن والاستقرار بالخوف والاستفزاز . ومبلغ ماكان من ذلك فى العهود المختلفة لم يزد على نزوات هوج ثارت ثم قرت . ومبلغ ما هو كائن أو مايكون لايزيد على أن يكتب كاتب مقالا فى مجلة ، أو يصيح صائح بخطبة فى منبر .

وحتى أولئك الذين يخالف دينهم دين الكثرة الكاثرة من أهل هذه البلاد كان الازهر ومايزال يروض على البر بهم جوامع النفوس ، ويوطىء للتعايش السلمى معهم أكناف الحياة .

وثانية الحقيقتين الكبيرتين تتمثل فى مكانة بلدنا هــذا بين بلاد العالمين . فقد صنع الازهر فى هذا الميدان ــ ومايزال يصنع ــ الصنيع

الجميل ، ويقدم لهذاالبلد الخير الكثير . وانه هو الذى ملأ من هيبة هذه البلاد صدور أعدائها بقدر ما ملأ من الحب والمودة صدور أوليائها .

والبلاد التى تجد لها فى شتى جوانب الدنيا عداوات تتملقها ومودات تحوطها وتغضب لها وتحرص عليها هى بلا ريب بلاد منيعة قوية المنعة عزيزة بالغة العزة .

وقد كان من حق الذى يضفى أو يشارك فى اضفاء المجادة على الماجدين أن يلقى من التكرمة ورعاية الحرمة وبذل الود ما تلقى المجادة نفسها من التكرمة لها والضن بها والحرص عليها ، وبهذا كان من حق الازهر وقد اضفى على بلادنا هذه ما أضفى ، وهيأ لها من أسباب الزعامة ما هيأ ، ان يلقى من مواطنيه ما يلقاه سبب من اسباب خيرهم وركن من أركان مجدهم وعزهم ، سواء فى ذلك من يتفق معه ومن يختلف عليه ، فان الخير المجلوب به ، والامل المعقود عليه ، والعواطف العالية الطائفة من حوله يشترك فى خيرها جميع المواطنين سواء منهم أهل الدنيا وأهل الدين ، بل سواء فى ذلك أهل المسيحية وأهل الاسلام

غير أنه اذا كان للهوى أن يجحد الحق ، وللضغن أن ينكر الفضل ، فان فى ثواب الله وجميل فضله أجمل العوض وأحسن الجزاء .
وليس حق الازهر أول حق مجحود ، ولا فضله أول فضل منكور ، فما أكثر ماجحد الناس حتى خالق الناس ، فأنكروا نعمته عليهم واطلقوا فيه سبحانه السنتهم ففى أدبنا المأثور أن زكريا عليه السلام سأل ربه أن يجنبه مقال الناس فيه ، فقال الله جل وعلا « يازكريا تسألنى مالم أستصفه لنفسى ، فلن أستصفيه لك . »

وجامعة الازهر ليس من شك فى انها سوف تمضى على سنن أبيها الجليل ولن تختلف غايتها عن غايته ، ولن ينحرف طريقها عن طريقه الا بقدر ما تتطلبه الحياة المتطورة من تغيير الخطط وتعديل الوسائل .

ولقد خلق الله الانسان لحما ودما ثم نفسا وروحا ، جانبان لكل منهما خصائص ومطالب . وقد انصرف الازهر الى العناية بالجانب الروحى بمقدار ما انصرف عن العناية بالجانب المادى ، أو بعبارة أدنى الى الحق أريد له أن ينصرف عن هذه العناية ، والا فنحن نعلم ان الازهر حين انتقلت الى ابهائه وصحونه حلق الفقه والادب منطلقة من المذهبية الضيقة الى الحرية المذهبية ، كانت ــ كما يقول التاريخ الصحيح ــ تدرس فيه علوم الفلك والهيئة والميقات

والطب والمواليد والرياضة والحساب . وكانت تعقد فيه مجالس الحكمة للنساء فى أحيان كثيرة .

ولقد ظل وجود المرأة فى حلق العلم فى الازهر الى عهد قريب . ولعل التاريخ لم يفته أن يذكر تلك السيدة الفضلى التى تقدمت لنيل شهادة العالمية الازهرية . ولوانه كان قدترك لتلك السيدة أنتجتاز ذلك الامتحان ، ولولا أطياف من الوهم كانت تلم ببعض الرؤوس يوم ذاك ، لمضت سنة تعليم المرأة فى الازهر الى غاية بعيدة نبيلة ولظفرنا بمجتمع أجمع لمعالى الخير وامس بروح الاسلام ، ولكان لنا أن نقى بيوتنا شر الجهل ، أو شر علم كان فى كثير من الاحيان شرا من الجهل .

وذلك أن الازهر حين أغلق دون المرأة ابوابه ، فتح على قدر ما اغلق ابوابا الى المدارس والمعاهد الاجنبية ، والتحقت بناتنا بدور التعليم هذه ، والبنات دائما هن أمهات الغد ، فكان من عمل هذه المدارس والمعاهد ان اقامت بيوتا ونشأت أجيالا ترتبط بالحضارات الاجنبية اوثق ارتباط ، وتعتز بها اشد أعتزاز ، وتؤمن لهذا من طريق الثقافة التى تلقتها عن الدخلاء أقوى ايمان . وليس ذلك غريبا فان الناس دائما أولياء ماعلموا ، وأعداء ماجهلوا ، وهم دائما بثقافاتهم أشبه منهم بآبائهم وامهاتهم .

ولست أعنى بذلك القول ان كل من تلقى علومه فى تلك المدارس والمعاهد كان بعيدا عن الوطنية الصحيحة والمواطنة الحق ، فان فى أولئك الذين ربتهم تلك المدارس من الرجال والنساء من تنطوى صدورهم على معان خيرة ، ويتجه سلوكهم الى غايات جليلة . ولعلكم تذكرون البطل الشهيد « جواد حسنى » وثقافته اجنبية وأمة انجليزية ، ومع ذلك أبلى أحسن البلاء ، ودافع اشرف الدفاع فى معركة بورسعيد سنة ١٩٥٦ فلست أقصد الى القول بأن كل من دخل هذه المدارس ابتعد عن استشعار الاسلام ، أو جافى روح المواطنة ، وانما أقصد ان غايات تلك المدارس والمعاهد لايمكن أن تكون التربية اسلامية أو تربية وطنية والذين تغلبوا على تلك المناهج ، فكانوا مسلمين أو كانوا مواطنين صالحين ، كانت لهم بلا ريب نفوس كبيرة ومشاعر نبيلة ، لانهم استطاعوا بقوة نفوسهم وسلامة فطرهم أن يغلبوا الغايات التى أرادتها لهم الخطط الاجنبية ، وحددتها لتربيتهم المناهج الاستعمارية .

هذا ، واذا كان اغلاق الازهر ابوابه دون المرأة قد مكن لالوان من التقافة فى بيوتنا ضارة ، فقد تضاعف هذا الضرر بانصراف الازهر نفسه تن العناية بالعلوم الكونية ، والفنـــون المعملية ، فانه سرعان ماوجد نفسه معزولا عن المجتمع ، أو منعزلا عنه ، لايشارك من قريب أو بعيـــد فى زراعة او صـــــناعة او تجارة او شيء مما يتصل بتصرف الانسان على هذه الارض من أجل معاشه ، فأصبح وعمله كله لايعدو ان يكون كلمة هزيلة فى درس ، أو عظة خاشعة فى منبر .

واذن فلم يكن بـــد من تطوير الازهر تطويرا يتهيأ به لبناتنا من العلم والمعرفة ماقد تهيأ لابنائنا ، ويضيف الى الخير التالد فى رسالة الازهر العلمية خيرا طارفا فى رسالة اخرى معملية وبذلك يكون له ان يجاهد فى المجال المادى الى جانب جهاده الدائب فى المجال الروحى ، كما يكون له أن يعالج شئون الدين بروح الدنيـــا ، وشئون الدنيـــا بروح الدين وذلك فى رأى المنصف البصير هو الطريق الفارد بأقدار الازهر على خدمة الانسان بمعنييه جميعا ، روحه وجسده ، واقداره على أسداء الخير النافع الى هذا الوطن العزيز والى الانسانية جمعاء.



بين الشيعة .. والسنة



كيف يرضى المؤمن أن تختلق الاسباب اختلاقا لافساد مابين الاخوة .. واقامة علاقتهم على اصطياد الشبه وتجسيم التوافه ؟

ان قضية السنة والشيعة هى فى نظرى قضية ايمان وعلم معا فاذا رأينا أن نحل مشكلاتها على ضوء من صدق الايمان وسعة العلم فلن تستعصى علينا عقدة ولن يقف أمامنا عائق .
أما اذا تركنا ـ للمعرفة القاصرة واليقين الواهى ـ أمر النظر فى هذه القضية والبت فى مصيرها فلن يقع الا الشر .

وهذا الشر الواقع اذا جاز له أن ينتمى الى نسب ، أو يعتمد على سبب ، فليبحث عن كل نسب فى الدنيا ، وعن كل سبب فى الحياة ، الا نسبا الى الايمان الصحيح ، أو سببا الى المعرفة المنزهة .

⊙❖⊙

نعم ، قضية علم وايمان ..

فاما انها قضية علم ، فان الفريقين يقيمان صلتهما بالاسلام على الايمان بكتاب الله وسنة رسوله ، ويتفقان اتفاقا مطلقا على الاصول الجامعة فى هذا الدين فيما نعلم ، فان اشتجرت الآراء بعد ذلك فى الفروع الفقهية والتشريعية فان مذاهب المسلمين كلها سواء فى أن للمجتهد أجره أخطأ أم اصاب ٠

وتبوت الاجر له قاطع بداهة فى ابعاد الظنة ونفى الريبة أن تناله من قرب أو بعد ٠ على أن الخطأ العلمى ــ وتلك سماحة الاسلام فى تقديره ــ ليس حكرا على مذهب بعينه ، ومن الشطط القول بذلك ٠

وعندما ندخل مجال الفقه المقارن ، ونقيس الشقة التى يحدثها الخلاف العلمى بين رأى ورأى ، أو بين تصحيح حديث وتضعيفه ، نجد أن المدى بين الشيعة والسنة ، كالمدى بين المذهب الفقهى لابى حنيفة والمذهب الفقهى لمالك أو الشافعى أو المدى بين من يعملون ظاهر النص ، وبين من يأخذون بموضوعه وفحواه ، ونحن نرى الجميع سواء فى نشدان الحقيقة وان اختلفت الاساليب ٠

ونرى الحصيلة العلمية لهذا الجهد الفقهى جديرة بالحفاوة ، وادمان النظر واحسان الدراسة ، فهى تراث علمى مقدور مشكور

واما انها قضية ايمان ، فانى لا أحسب ضمير مسلم يرضى بافتعال الخلاف وتسعير البغضاء بين أبناء أمة واحدة ، ولو كان ذلك لعلة قائمة ٠

فكيف لو لم تكن هناك علة قط ؟

كيف يرضى المؤمن صادق الصلة بالله أن تختلق الاسباب اختلاقا لافساد ما بين الاخوة ، واقامة علائقهم على اصطياد الشبه وتجسيم التوافه ، واطلاق الدعايات الماكرة ، والتغرير بالسذج والهمل ٠

وهب ذلك يقع فيه امرؤ تعوزه التجربة وتنقصه الخبرة ، فكيف تقع فيه أمة ذاقت الويلات من شؤم الخلاف ، ولم يجد عدوها ثغرة للنفاذ الى صميمها الا من هذا الخلل المصطنع عن خطأ أو عن تهور ٠

ولقد رأينا مع بعض رجال التقريب أن نقوم بعمل ايجابى

لعله أن يكون حاسما سدا لهذه الفجوة التى صنعتها الاوهام ، بل انهاء لهذه الجفوة التى خلقتهــا الاهواء بأن تتولى وزارة الاوقاف ضم المذهب الفقهى للشيعة الامامية الى فقــه المذاهب الاربعــه المدروسة فى مصر .

وسيرى أولو الالباب عند مطالعة هذه الجهود العلمية أن الشبه قريب بين ما ألفنا من قراءات فقهية ، وبين ما باعدتنا عنه الاحداث السيئة .

⊙❖⊙

وليس أحب الى نفسى من أن يكون هــذا العمل فاتحة موفقــة لتصفية شاملة تنقى تراثنا الثقافى والتاريخى من أدران علقت به وليست منه .

وأحسب أن كل بذل فى هذا السبيل مضاعف الاجر ، مذخور عند الله جل شأنه ، وان الثمرات المرتقبة منه فى عاجل أمرنا وآجله تغرى بالمزيد من العناية ، والمزيد من التحمل والمثابرة .

على أنه لن ينجح فى هــذا المجال الامن استجمع خلتين اثنتين : سعة العلم ، وصدق الايمان .

ان الاصالة الفكرية فى مجال البحث عن الحق وتعليمه تلتقى مع متانة الخلق وبراءة النفس من العقد والعلل .. والثروة الطائلة من الثقافة تورث النفس رحابة تشــبه الرحابة التى يورثها الايمــان الخالص النقى .

ذلك أن الحصيلة العلمية الضخمة تجعل صاحبها بعيــد منادح النظر ، وتجعله يعــرف عن خبرة ــ آراء معارضيه ، وكيف تكونت هذه الاراء ، ومدى ما للملابسات المختلفة من عمل فى تكوينها .

وصدق الايمان يجعل المسلم بادى التلطف مع الناس ، حذرا من قطع أواصرهم لبقاى بيان الحق والدعــوة اليه ، امنيته الغاليــة أن تنشرح الصدور بالهدى ، وان تنــاءى عن مواطن الردى هيهــات أن يشمت أو يعتد أو يحقد أو يشارك فى مــراء وهو يريد لنفسه الغلب ويبغى لصــاحبه العطب ، كلا .. كلا .. فشرط الاخــــلاص لله ينفى هذا كله .

ونحن المسلمين بحاجة ماســه الى أن نبنى علاقاتنا على هــذه الاسس ، وان نزيح من طريقنا الى المستقبل الطيب ماخلفته الايام والاهواء من عقبات .



مطلع .. حق وعدل

كان الناس يتفاضلون فيما بينهم باللون والجنس وكل مالا حيلة لهم فيجلبه اورده.. وما اكثرماشقيت الانسانية بهذا اللون من التفاضل .



المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها الى ليلةالقدر والاحتفال بها والحرص عليها والتعرض لما يحتشد فيها من خير كثير وثواب كبير .

وعلى أن ليلة القدر خير عريق فى الخير ، لا يشك فى هذا مسلم ولا ينبغى لمسلم أن يشك فيه ــ نرى الناس يختلف تصورهم لها ، وتتباين قدرتهم على ادراك سر العناية بها والاحتشاد لها والاهتمام بشأنها .

فمن الناس من يتجه فى تصورها اتجاها ماديا مجسما ، يستلفت النظر ويسترعى الانتباه ، وربما أبعد هؤلاء فى الخيال فزعموها بابا يفتح أو نورا يتوهج ، هاتفا بالمؤمن أن يدعو الله

ما شاء من خير معجل الثمار ، فلا يلبث أن يرى الخير معجلا دانى القطوف !

ومن الناس من يتجه فى تصورها اتجاها لا تحصره حدود مرسومة ولا تبرر به فكرة واضحة ، ولا ينشأ عنه اقتناع مسلم . وهو لهذا لا يستطيع أن يقنع بها أولئك الذين يحبون أن يقتنعوا من كل شيء بمعنى ثابت يهتف بالحجة أن تغلب وبالمنطق أن يسود

وانى لاكره لنفسى — علم الله — أن أقيم منها رقيبا على الناس فيما يعتقدون وما لا يعتقدون ، وانى أعلم أن الدين أساسه الايمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وما يتصل بذلك من الغيوب المحجبة والشئون المستورة ، وليس لنا الا أن نسمع ونطيع ، وليس علينا الا نذعن لما أخبر به عن الله تعالى كتاب حكيم أو صح به عن النبى صلوات الله عليه حديث كريم .

⊙❖⊙

وليلة القدر من الشئون الدينية التى صح بها النص صحة لا تدع فى المؤمن ريبا فى نفس أو حرجا فى صدر ، وان كان لم يرد معها ذلك السر الذى دعى المسلمون الى تكريمها من أجله تكريما تستجلب به معونة الله ويرجى معه جميل عفوه وعظيم ثوابه فى الدنيا حيث الحاجة الى عونه بادية والافتقار الى رضوانه شديد ، وفى الآخرة حيث الخوف من غضبه مفزع والرجاء فى رحمته عظيم .

من الناس اذن من يفتح ذراعيه لليلة القدر ، فيقوم ليلها ، ويصوم نهارها امتثالا لامر الله فيها ، وخضوعا لتوجيهه اليها ، كائنا ما كان سرها وبالغة ما بلغت حكمتها لا يمد نظره الى أبعد من هذا الامتثال ، ولا يبالى الا أن يعبد الله كما أمر الله المسلمين أن يعبدوه ، ومنهم من يصورها مع هذا تصوير انتفاع عاجل وتجارة رابحة ، وسماء تفتح أبوابها ، وأنوار تشع أضواؤها ، ومطالب تستجاب ، اذا صادفت ذلك النور المشرق ، أو وافقت ذلك الباب المفتوح ، مهما يكن الشأن فيها خطيرا والامر فيها عظيما .

⊙❖⊙

ومعذرة أن أنظر الى ليلة القدر من جهة نظرة أخرى ، وأن اصورها تصويرا آخر يوافق المنطق الذى لا أجد مناصا من

موافقته ، ويماشي التفكير الذى لا أجـد مناصـا من الخضوع له ، والاستقامة عليه ٠

ان ليلة القدر لم تكن ولن تكون بابا يفتح فى السماء ، أو نورا يملأ فضاء البيت ، وانما هى مبـدأ لرحمـة الله الشـاملة التى استنقذت الانسانية كلها من ربقة الطغيان ، وأخذت بيد الحيارى الى مسالك واضحة المعالم شريفة الغايات ، يستشعرون فيها برد الطمأنينة وراحة السكينة ، والناس مذ بلغوا رشدهم يتخذون لهم أياما مقدسات فى حياتهم ، يفصلون بهـا بين ماض أليم وحاضر مطمئن ، وبين ما كانوا عليه من ذل وصغار وصاروا اليه من مجد وفخار ، ثم ينظرون فيها الى المحن المـاضية فيزدادون فرارا منها ، والى المنح الباقية فيزدادون ضنا بها واقبالا عليها ٠

وبعض الناس يتخذ من هذه الايام مواسم عبادة يستديم فيها نعمة الله عليه بعبادته حق عبادته ، وشكره حق شكره ، وبعضهم يتخذ من هذه الايام مواسم تنطلق فيها متعة الجسد ، وتستعر نار الشهوات والاثرات ، والمسلمون أمروا أن يتخذوا من ليلة القـدر موسما يخلصون فيه لله أنفسهم ، ويقدمون له شكرانهم على أن أخرج أمتهم من الظلمات الى النور ، ومن الباطل الى الحق ، ومن الذلة الى العزة ، ومن الوثنية التى يستعبد فيهـا البشر البشر ، الى الوحدانية التى لا تكون العبودية فيها الا لله رب العالمين .

ان للشرق وللغرب أعيـادا يتلقـاها أهل الفـكر والنظر منهم بالترحيب بمقدمها والاحتفال لاهلالهـا والتهيؤ لالتمـاس العبرة بها والاتعاظ منها ، ويتلقاها سواد تلك الشعوب باللهو الممتـع والفرح الراقص والنشوة الطروب ، وأولئـك وهؤلاء يحتفلون بأيام محدودة المعنى أو عنصرية الغاية مقصـورة الخير على جانب ضيق من جوانب الامة يتصل فيها بغريزة حب الاسـتعباد وحب الاستغلال ٠

فاما ليلة القدر فانما يحتفل بها المسلمون من حيث كانت مطلع حق وعدل وحرية وكرامة واخاء ومساواة ، كما كانت مطلع تشريعـات انسانية رفيعة يتساوى فيها الناس ولا يفضل بعضهم عـلى بعض الا على قـدر مايؤدون للمجتمع من خير نافع وصالح مفيد ٠٠

⊙❖⊙

كانت ليلة القدر مبدأ نزول القرآن كما يقول الله سـبحانه :

« **انا أنزلنـاه فى ليلة القدر** » وكما يقول فى سورة أخرى « **انا أنزلناه فى ليلة مباركة** » والقرآن رحمة الله للناس وعدله فيهم ، ونصحه لهم ، وتوجيهه اياهم ، والازمنة تسعد وتشقى كما يسعد الناس ويشقون ، وتشرف وتتضع كما يشرف النـاس ويتضعون فاليوم الذى يكون ظرفا لمكروه يصيب أو نازلة تقع ، يوم شقى بغيض ، واليوم الذى يكون ظرفا لخير يأتى ، أو بشارة تسر ، يوم سعيد حبيب • وبهذا المقياس تكون ليلة القدر ليلة شريفة كريمة سعيدة ، لان فيها نزل القرآن ، الذى رفع من خسيسة الانسانية وأسبغ عليها السعادة بعد الشقاء ، والكرامة بعد المهانة والامتهان

كان النـاس يتفـاضلون فيما بينهم باللون والجنس وكل ما لا حيلة لهم فى جلبه أو رده ، وما أكثر ما شقيت الانسانية بهذا اللون من التفاضل ، فهـذا الاسود بفعل البيئة التى عاش فيها ونبت منها ما ذنبه أن يحقره الناس ، وربما كانت نفسه تنطوى على فضائل لا يوجد لها ظل فى أنفس الذين يحتقرونه ويرفضون أن يسووا بينه وبينهم فى الحقوق والواجبات •

ومن أجل ذلك كان رحمة من الله أن يجىء القرآن ليضع مقاييس جديدة يتفاضل عليها الناس فيما بينهم ، وتتلخص هذه المقاييس فى وجود الضمير اليقظ الواعى الذى يراقب الله فى صلته بنفسه وفى صلته بالناس من حوله ، وذلك قول الله تعالى :

« **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شـعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » •

وليس أكرمكم عند الله أبيضكم وجها أو أجملكم شكلا •

وكان الناس يظلمون أنفسهم ويحتقرون انسـانيتهم ويرضون بأن يستضعفوا ويستذلوا طلبا للسلامة الرخيصـة ، وابقـاء على العيش الذليل • وأخطر شىء على بناء المجتمع أولئـك الضـعاف المستسـلمون ، فانهم باستسلامهم هـذا يفتحون الطريق أمـام استبداد الطغاة المستبدين ، ولاصلاح المجتمـع يتردد طرفاه بين المهانة والذل ، وبين الاستبداد والطغيـان • ولهـذا جاء القرآن يستنفر الضعاف وأشباههم الى الاعتزاز بانسـانيتهم والتسـامى بقيمتهم ، وشدد فى ذلك أبلغ تشديد فذلك حيث يقول :

« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين في الارض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا » ..

⊙❖⊙

وهكذا كل المبادىء الرفيعة التى جاء بها القرآن ودعا الناس اليها أو حملهم عليها ، وانتفعت الانسانية منها انتفاعا عظيما . كل ذلك كان مشرقه ليلة القدر ، وكان مبدأ وجوده ليلة القدر . وكان البشير به ليلة القدر . ومن هنا كانت هذه الليلة فصلا بين عهدين ، وكانت أول الزمن الذى اعتز فيه الناس بعد طول ذل ، واجتمعوا بعد طول فرقة ، وتعارفوا بعد شديد تناكر ، وخرجوا من الظلمات الى النور ، ومن الموت الى الحياة .

ولعل ذلك هو السر فى أمر المسلمين أن يحيوا هذه الليلة شكرا لله على آلائه ، وحمدا له على نعمائه ، واستدامة لتلك الذكرى الكريمة فى النفوس ، وتجديدا لها فى الصدور فان أحياء الايام ذات المناسبات الطيبة احياء لنفس هذه المناسبات الطيبة ، وتكريم الليالى ذات الذكريات الجميلة تكريم لنفس الذكريات الجميلة ، والخير ان شاء الله من ذلك كله مرتقب لا بأس منه ، وواقع لا شك فيه ، وربما كان من أجل هذه المعانى الشريفة فى ليلة القدر جعل قيامها سترا للعيوب ، وغفرا للذنوب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من قام ليلة القدر ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه »



العقيـــدة والسلوك



كل سـلوك فى المجتمع الانسانى له اصـل يرتد اليه ، وفلسفة يقوم عليها ونبع يستمد وجوده منه وعلى مقدار اختلاف هذه الفلسفات والاصول يختلف سلوك الناس وتصرفاتهم .

قرأنا فيما كنا نقرأ من كتب ، كلاما ينسبه أهله الى الفلسـفة ، ويزعمون فيه أن التربيـة والعظة والارشـاد غير قادرة على تحويل الانسان من خير الى شر ومن منحرف الى مستقيم . ثم قالوا لان الانسان ابن غرائزه ورغباته ، أكثر ممـا هو ابن للموعظة والارشاد . وراح أصـحاب هذا القول يضربون مثـلا كثيرة فى عالم الحيوان وعالم الانسان .

غير انهم فيما يبدو ، لم يراعوا جانب العقيدة المؤمنة ، ولم يحاولوا أن ينظروا الى فلسفتهم من خلال ايمان أصحاب العقائد .

ولو قد فعلوا ، لاضطرب بهم مجال القول الذى يقولون ، وضاقت عليهم سـبل النظريات التى يعتنقون . ذلك ان العقيـدة قادرة على تبديل النفوس البشرية وتغييرها ، حتى ليخيل الى الناظر فى هـذا

الباب أن صاحب عقيدة معينة خلق خلقا جديدا بعد أن أعتنق عقيدة معينة ، فهو قبل اعتناق عقيدته شيء ، وهو بعد اعتناق هذه العقيدة شيء آخر يختلف عن الاول أشد الاختلاف .

ولدينا نحن المسلمين فى هذا الباب ، صور لايحوم الشك حولها ، حين نتأملها فاقهين ، لانملك الا أن نلحظ قدرة الاسلام ، وانه غير الطبائع فعلا ، وبدل النفوس يقينا ، وآية ذلك فى القديم وفى الحديث لاتكتنفها ظلمة ، ولا تخفى اليها طريق .

ولدينا فى هذا المقام ، مثل لسيدة مسلمة ، من صواحب رسول الله صلى الله علية وسلم ، بدل الاسلام طبيعتها وغير نفسها تغييرا لا يرقى اليه الشك ولا تحوم من حوله الظنون . وهذه السيدة الجايلة ، هى الخنساء الشاعرة : تماضر بنت عمرو بن الشريد السلمية .

كانت الخنساء فى جاهليتها ، قبل ان تضيء العقيدة جوانب نفسها أسيرة تقاليد اليمة شديدة ، لايسعد بها مجتمع ، ولاينجو من متاعبها انسان وكانت دائبة البكاء على أخيها صخر " فى شعر عربى رائع " يقول أهل العلم بالادب والشعر ، ان عالم الشعر العربى لم يعرف سيدة قبلها ولابعدها أشعر منها . وقد دفعها حزنها ان تلبس صدارا من الشعر على عادة أهل الجاهلية حين يستبد بهم الحزن على موتاهم .

ومن شعرها الباكى فى أخيها صخر ترثيه : قولها :

ألا يا صخر ان ابكيت عينى	فقد أضحكتنى دهرا طويلا
دفعت بك الجليل وانت حى	فمن ذا يدفع الخطب الجليلا
اذا قبح البكاء على قتيل	رأيت بكاءك الحسن الجميلا

وقولها فيه :

ألا يا صخر لا أنساك حتى	أفارق مهجتى ويشق رمسى
يذكرنى طلوع الشمس صخرا	وأذكره لكل مغيب شمس
ولولا كثرة الباكين حولى	على اخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولكن	أعزى النفس عنه بالتأسى

ومازال هذا ديدن الخنساء فى جاهليتها ، شعر باك ، وحزن قاتل ، وحياة أليمة قاسية ، تطاردها فى اليقظة ، وتزعجها فى الاحلام حتى وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومها ، فأسلموا وأسلمت .

يقول أهل الحديث : لقد دخلت الخنساء على عائشة ، وعليها صدار من الشعر ، فقالت لها عائشة : لقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم النساء عن ان يفعلن مثل هذا ، قالت الخنساء : مابلغنى من ذلك شىء ، ولو قد بلغنى ، ما فعلت .

ويقول رواة الحديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يستمع الى شعرها ويستزيدها قائلا لها : هيه يا خناس ، يعنى زيدينا من شعرك ياخنساء .

وقد امتد العمر بالخنساء هذه ، حتى أدركت عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وكان لها أولاد أربعة ، حرضتهم على أن يشاركوا فى معركة القادسية بين المسلمين والكافرين ، فتنادوا الى الموت فى سبيل الله ، نزولا على حكم عقيدتهم واستنصاحا بنصيحة أمهم ، حتى استشهدوا أربعتهم جميعا .

ويقول الثقات من الرواة ، انها استدعت أولادها الاربعة ليلة المعركة ثم قالت لهم : لقد اسلمتم طائعين ، وهاجرتم مختارين ، وانكم لبنو رجل واحد ، كما انكم بنو امرأة واحدة ، ماخنت والله أباكم ، ولا فضحت خالكم ، ولا هجنت نسبكم ، ولا غيرت حسبكم ، وقد تعلمون ما أعد الله للمسلمين من الثواب فى حرب الكافرين . فاذا أصبحتم فاغدوا الى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على اعدائه مستنصرين . فما زالوا يقاتلون حتى قتلوا جميعا فى هذه المعركة معركة القادسية . وجاءها النعى ينعى اليها أولادها الاربعة ، فما زادت على أن قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم فى سبيل الله ، وارجو من ربى أن يجمعنى بهم فى جنته ومستقر رحمته .

ثم لم يؤثر عنها شعر فى رثائهم

فالمراة التى ظلت تبكى أخاها فى الجاهلية ، لم تدمع عيناها على أولادها الاربعة الذين قتلوا بين يديها .

ولا يعرف الناس صورة لتبدل طبيعة النفس بالعقيدة كما يعرفون هذه الصورة للاسلام .

وكل سلوك فى المجتمع الانسانى ، له أصل يرتد اليه ، وفلسفة يقوم عليها ، ونبع يستمد وجوده منه . وعلى مقدار اختلاف هذه الفلسفات والاصول ، يختلف سلوك الناس وتصرفاتهم فىدنيا الناس .. وسنضرب لذلك مثلين :

فأما أحدهما فموصول بالمسلمين ، عقيدة وسلوكا وتصرفات .

وأما الثانى فموصول باليهود ، عقيدة وسلوكا وتصرفات .

فالمسلم يؤمن بالاله القوى القادر على انه رب شـــامل الربوبية ، وهو يكرر الاعتراف بهذه الربوبية الشاملة كل يوم سبع غشرة مرة على الاقل ، فى الصلوات المفروضة ، لانه يقرأ فى كل ركعة من ركعات الصلاة فاتحة الكتاب وأولها « الحمد لله رب العالمين » فهو سبحانه ، فى عقيدة المسلم ، رب الناس ملك الناس اله الناس ، وهو سبحانه فى عقيدة المسلم رب الفلق ، وهو رب السموات والارض ، وهو رب الاسمر والابيض ، وهو رب اليهود والنصارى والمسلمين ، ورب المؤمنين والكافرين .

وأما اليهود فانهم لايعتقدون الامر هكذا ، فليس فى كتبهم أن الله رب العالمين ، ولكنهم احتـــكروا الاله لانفسهم ، فأسمـــوه تارة اله اسرائيل ، وتارة أخرى اله الجنود ، كما تنطق بذلك كتبهم المقدســـة .. ففى سفر اللاويين : « أنا الرب الهكم الذى ميزكم من الشعوب » .. وفى سفر التثنية « اياك قد اختار الرب الهك لتكون له شعبا أخص من جميع الشعوب الذين على وجه الارض » .

والسؤال الان هو : هل كان لعقيدة المسلمين فى الاله ، وانه اله للعالمين ، أثر فى سلوكهم وتصرفاتهم ؟ ثم هـــل كان لعقيدة اليهود فى الاله ، وانه اله اسرائيل ورب الجنود أثر فى سلوكهم وتصرفاتهم ؟

والجواب على هذا السؤال يقتضى كلاما كثيرا للمتكلم ، وكتابة كثيرة للكاتب . غـــير اننى أوجـــز أثر العقيدة الاسلامية فى سلوك المسلمين . وأثر العقيدة اليهودية فى سلوك اليهود ، فى كلمات قصار لايتسع لاطول منها هذا المقام .

فالمسلمون بحكم نظرتهم الى الاله نظرة شـــــاملة ، يرون أن من الممكن أن تقوم أخوة عالمية فى ظل الله .

وقد دعا القرآن الكريم الى هذه الاخوة العالمية .

ثم ان المسلمين طبقا لتعاليم دينهم ، يرون الناس طبقة واحدة ، وان اختلفت بالغنى والفقر ، والصحة والمرض ، والضعف والقوة ، والعلم والجهل .

وبدهى أن هذا الاختلاف لايعنى أن يكون جيل من الناس أفضل من آخر ، أو أن يكون صنف من الناس سادة وآخرون عبيدا .

ويقابل هذا الاثر العادل للعقيدة الاسلامية فى نفوس المسلمين ، يقابل هذا أثر ظالم للعقيدة اليهودية فى نفوس اليهود .

فقد ترتب على عقيدتهم ، أن يكون اليهود فى الدنيا سادة ، وان من حقهم أن يستعبدوا البشر كلما سنحت لهم فرصة استعباد البشر .

كذلك ترتب على عدالة العقيدة الاسلامية ، أن الاسلام حرم الربا على اختلاف صوره ، وفى كل زمان ومكان . وجعل المسلم آثما إن تعامل بالربا ، لانه أكل لاموال الناس بالباطل ، ولو كان هذا المال مال اليهود أو مال النصارى أو مال غير المسلمين بوجه عام .

على حين ان اليهود أباحوا الربا ، واباحوا ان يأكلوا أموال الناس بالباطل . فالربا عندهم مشروع الا أن يكون بين يهودى ويهودى .

فاليهودى من حقه دينا أن يأكل بالربا مال النصارى ومال المسلمين ولكن ليس له أن يأكل بالربا مال اليهودى مهما تكن الاحوال .

والى نظرة اليهود هذه ، يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى :

((ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الاميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون))

كذلك نشأ عن الاعتزاز بالجنس ، ان اعتبر اليهود انفسهم فوق البشر ، واعتبروا جميع من عداهم من الناس دونهم مرتبة ومنزلا وفضلا .

ومن هنا يكون من المقطوع به ، أن أول دعاة العنصرية فى العالم هم اليهود ، وأن الناس ، جميع الناس ، هم تبع اليهود فى الدعوة الى العنصرية بوجه عام .

هذان مثلان للجانبين الاجتماعى والاقتصادى .

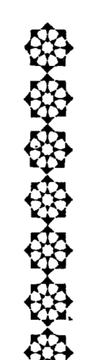
أما عن جانب الحرب فيقول اليهود فى سفر التثنية :

« حين تقرب من مدينة لكى تحاربها ، استدعها للصلح . فان أجابتك فكل الشعب الموجود فيها ، يكون للتسخير ويستعبد لك . وان لم تسالمك ، بل عملت معك حربا ، فحاصرها ، واذا دفعها الرب الى يدك ، فاضرب جميع ذكورها بحد السيف » .

أما العقيدة الاسلامية من جانب الحرب ، فأثرها فى نفوس المسلمين يتضح فى وصية أوصى بها خليفة رسول الله سيدنا أبو بكر فقد خرج رضى الله عنه يودع جيش اسامة وخطب فى المحاربين فقال :

« أيها الناس ، قفوا أوصكم .. اوصيكم بعشر فاحفظوها عنى ، لاتخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا صغيرا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولابعيرا ولا بقرة الا للأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .





ديـــن .. الأنبيـــاء

اليهـودية التى تنزلت
وحيا من السماء هى فى
رأى المسلم اسـلام ..
والمسـيحية التى تنزلت
وحيا من السماء هى فى
رأى المسلم اسلام .

من مظاهر جمـال القدوة التى تتم بها النعمـة حين تنضم الى منهاج التربية السليمة أن النبى عليه السلام كان يكره أشد الكره أن يرفع اليه أحد أصـحابه خبرا يسوء صـاحبا من الاصحاب أو يحط من منزلته عنده عليه السـلام ، فكان يقول دائمـا لأصـحابه : دعونى ألقاكم سليم الصـدر ـ يعنى لا يكن فيكم نمام يفسد الصلة بينى وبينكم .

وعلى مثل هذا الخلق الرضى كان مجلسه مجلسا أمينا نظيفا عفا كما يقرر ذلك أمير المؤمنين على كرم الله وجهه حيث يقول واصفا مجلس محمد عليه السلام مع أصـحابه : « مجلس حلم وحيـاء وصبر وأمانة ، لا ترفع فيـه الاصوات ، ولا تؤبن (أى تعـاب) فيه الحـرم ، ولا تنثى (اى تذاع) فلتـاته . اذا تكلم أطـرق جلساؤه كأن على رءوسهم الطير ، فاذا سكت تكلموا ، ولا يقبـل

الثناء الا عن مكافىء (يعنى لم يكن يأذن للثنـــاء أن يكون جزافا غير مقابل لعمل يستحقه) .

ومن مظاهر القدوة الحسنة فيه عليه السلام حلمه الذى لا ينفد وصبره على ما يؤلم ويثير . فقد روى الثقات من أهـل السـير أن اعرابيا جلفا ألجأته الحاجة الى طلب المـال ، فجاء الى رسول الله فجذبه جذبة شـــديدة ، أثرت فى صفحة عنقـه الشريف تأثيرا مؤلما وهو يقول له : يا محمد أعطنى من مال الله عندك ، فليس هو مال أبيك ولا مال جدك .. وكانت هذه الجفوة وهذه الغلظة كفيلة أن تثيره وأن تحمله على ما يكره ذلك الجلف من الاعراض ، غير أنه عليه السلام التفت الى الاعرابى والى أصحابه مبتسما ثم أمر له بعطاء .

ومن مظاهر القدوة التى تكمل بها التربيـة ، أن اعرابيا جاءه ترجف بوادره من هيبته ، فقال عليه السـلام : « هون عليـك يا أخا العرب فانما أنا ابن امرأة من مكة كانت تأكل القديد » .

ولئن كان صلوات الله عليه رفيقا بالكبار على ما رأينا . فلقد كان بالاطفال والصبيان أبين سماحة وأعظم رفقا . ومن دلائل هذا الرفق ما رواه الثقات من أهل الحديث من أنه كان وهو يصـلى يضع أمامة حفيدته بنت السيدة زينب رضى الله عنها على كتفه فاذا سجد وضعها على الارض واذا فرغ من سجوده تناولها مرة أخرى ووضعها على كتفه كما كانت .

وفى الاحاديث الصحاح أيضا أنه صلى الله عليه وسلم سـجد ذات يوم ، وجاء الحسـن أو الحسـين طفـلا فجلس على ظهره الشريف وأطال الرسول السجود ، ولما فرغ من صلاته قالوا لقد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أن الوحى قد استغرقك فقـال صلى الله عليه وسلم : « لا ، ولكن ابنى – يعنى ابن بنته – قد ارتحلنى فكرهت أن أعجله » – يعنى أن ابن بنته اتخذ منه جملا وانه جلس على ظهره الشريف وانه صلى الله عليـه وسلم كره أن يحرم الحسين من المتعة التى يستمتع بها الاطفال فى مثل هـذه الحالات .

وكذلك من مظاهر حسن القـدوة فيـه عليه السلام تسامحه الشديد مع الذين يخالفونه فى الدين . فقـد مرت على مجلســه جنازة فقام لها .

فقالوا له يا رسول الله انها جنازة يهودى .

فقال عليه السلام : وما فى ذلك .. أليست نفسا ؟

وكان يعرف أقدار الناس ويحترمهم على قدر منازلهم من الفضل ، فقد وقعت ابنة حاتم الطائى فى الاسر ، فلما علم بذلك عليه السلام أمر باطلاقها قائلا : أكرموها فان أباها كان يحب مكارم الاخلاق .

وكان جوادا يعطى عطاء من لا يخشى الفقر . وفى حديث صحيح يصفه ابن عباس رضى الله عنهما فيقول : كان رسول الله أجود الناس وكان أجود ما يكون فى رمضان فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة .

وكان دائم التذكير للمسلمين بأن أخوته مع سائر الانبياء أخوة جليلة وانه لا يجحد ما تنزل على اخوانه الانبياء من ديانات فكان يقول فيمايروى طفيل بن أبى بن كعب عن أبيه عن النبى قال : مثلى فى النبيين كمثل رجل بنى دارا فأحسنها وأجملها وترك فيها موضع لبنة (يعنى قالب طوب) فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويقولون : لم لم توضع هذه اللبنة ، فأنا فى النبيين موضع تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين ..

والمسلمون يعرفون عن طريق ما تلقوه عنه صلى الله عليه وسلم من التوجيه والارشاد ، أن الاسلام الذى نزل به الروح الامين على محمد رسول الله ، هو الاسلام الذى نزل به الروح الامين على أنبياء الله جميعا ، فاليهودية التى تنزلت وحيا من السماء هى فى رأى المسلم اسلام . والمسيحية التى تنزلت وحيا من السماء على عيسى هى فى رأى المسلم اسلام ..

وشاهد ذلك ودليله من كتاب الله قوله سبحانه فى اليهودية : **((أم كنتم شهداء اذ حضر يعقوب الموت اذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد الهك واله آبائك ابراهيم واسماعيل واسحاق الها واحدا ونحن له مسلمون))** .

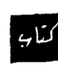
وشاهد ذلك ودليله فى المسيحية قول الله تبارك وتعالى : **((فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من انصارى الى الله قال الحواريون نحن انصار الله آمنا به واشهد بأنا مسلمون))** .

ومن هنا كان على المسلمين دينا ان يحترموا المقدسات اليهودية وأن يحترموا مقدسات النصرانية .

مع القدوة .. منهاج



اذا أعطيت المجتمع القدوة الحسنة .. فقد أعطيته مع هذه القدوة المنهاج الذى يسير على هديه .. والقانون بغير قدوة لا يعدو أن يكون جسما بغير روح .



الله منهاج واضح يستوعب كل مايداخل حياة الناس ، والنظر فى كتاب الله ميسور لكل قارىء • والاعتبار به ميسر لكل متأمل •

والقدوة الى جانب ذلك المنهاج انما تتمثل أصدق تمثيل فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما يقرر ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى : ((**لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الاخر وذكر الله كثيرا**)) .

وأحب أن أقرر أن الاصلاح ممكن بالقدوة الحسنة ، ولو على غير منهاج مفصل ، وقديما قال أسلاف فاقهون : اعطونا رجالا ولا تعطونا

قوانين . يعنون بذلك أن الرجل ربما أغنى عن القانون ، ولكن القانون لا يغنى عن الرجل فى حال .

وهذا القول ليس وهما أو خيالا ، وليس كلاما ملقى على عواهنه قاله قائلوه لمجرد أن يذكروا به ، ولكنه كلام دقيق وصادق ، لأن القدوة الحسنة لايتأتى تصورها الا على منهاج مفهوم . فاذا اتخذ المرء لنفسه مثلا أعلى وقدوة طيبة فى انسان كريم كبير ، فان هذا الانسان الكريم الكبير لابد أن يكون له منهاج يسير عليه ، وطريق الى غاية فيه .

فاذا أعطيت المجتمع القدوة الحسنة ، فقد أعطيته مع هذه القدوة المنهاج الذى يسير على هديه . أما اذا أعطيته قانونا فهو كلمات ليس لها صورة تتمثل فيه ، لان القانون بغير القدوة لايعدو أن يكون جسما بغير روح ومصباحا بغير شعاع . ومن هنا تكون القدوة مع المنهاج ألزم شىء لكى تجتنى ثمرات النظام والتربية والتكوين .

ومحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل مجال من مجالات الحياة ، هو القدوة الطيبة الكريمة ، والمثل الاعلى الرفيع ، وحسبنا من هذا قول الله تعالى فيه : ((وانك لعلى خلق عظيم)) .

والقدوة به عليه السلام لم تكن فيه من حيث كان رسولا نبيا فقط ، بل كان عليه السلام قدوة من حيث هو بشر سوى ، قبل أن يوحى اليه وقبل أن يبعثه الله رحمة للعالمين . ولعل هذا المعنى الكريم الكبير فى فطرته البشرية أمر تشير اليه الآية فى كتاب الله تعالى ((الله أعلم حيث يجعل رسالته)) .

والذين يقرأون عن محمد العربى قبل أن يوحى اليه ، يرونه انسانا كامل الانسانية ، ورجلا كامل الرجولية حتى احتل بين قومه أرفع مكانة وأعظم منزلة ، وحتى آثره بعض قومه على أقرب الأقرباء اليهم .

وقصة زيد بن حارثة آية ذلك وشاهد له ودليل عليه . وخلاصتها أن زيدا هذا ، وكان غلاما يفعة ، صحب أمه فى زيارة أخواله ، فأغار عليه ذئبان العرب وأسروه ، ثم باعوه فى سوق عكاظ عبدا رقيقا . وتنقل به الرق من يد الى يد ، حتى انتهى الى أن صار عبدا خادما لخديجة بنت خويلد زوج محمد بن عبدالله ، ثم وهبته خديجة زوجها ليكون عبدا له وخادما .

وليس يحتاج قارىء قصة زيد الى تصوير صورة أبيه وأمه وقد فقدا ولدهما ، فان ذلك أمر لايبلغه التصور مهما أوتى المصور من قوة اللسن وشدة العارضة وبراعة البيان .

وغاية مايمكن أن يقال ، هو ان والده حارثة ركب راحلته ومضى في الارض باحثا عن ولده ، تخفضه أرض وترفعه أخرى ، وبين جنبيه قلب يعتصره الحزن ، وهو يندب نفسه وولده بشعر يقول فيه :

أبكى على زيد ولم أدر مافعـــل ... أحى فيرجى أم أتى دونه الأجل
تذكرنيه الشمس عنـــد طلوعها ... وتعصف ذكراه اذا غربها أفل
وان هبت الأرواح هيجن ذكــره ... فياطول ماحزن وياطول ماوجل
سأعمل نص العيس في الأرض جاهدا ... ولن اسأم التطواف أو تسأم الابل
حيــــــاتى أو تأتى على منيتى ... وكل امرىء فان وان غره الأمل

بهذا الشعر الباكي الحزين كان حارثه والد زيد يودع ليله ويستقبل نهاره وما زال يطوى البيد بكبد حرى وجفنين مقروحين ، حتى أذن الله له بالخير ، وتنسم روح الراحة حين لقيه عربى فأخبره أن ولده زيدا فى بيت رجل بمكة يدعى محمد بن عبد المطلب .

ولم يكد حارثة يستمع الى هذا الخبر حتى مضى فى خفة الريح الى البيت الذى يقيم فيه محمد مع زوجه خديجة بنت خويلد . وهناك سجل التاريخ مشهدا لم يتهيأ له أن يسجله من قبل ولا من بعد . فان الغلام ماكاد يرى أباه حتى تمثل أنه مفارق دار سيده الى دار أبيه ، وانه مستبدل بصحبة محمد صحبة حارثة ، ولم يفت محمدا ماتراءى فى وجه الغلام من القلق والحيرة ، فاعتزم امرا يرضى الوالد ويسعد الولد ، ويكون حديثا بعد ذلك عجبا ، يرويه التاريخ فينحنى له الناس اجلالا واحتراما .

قال محمد لحارثة : ولدك هنا فى هذه الدار بين أب راحم وأم حنون وان يكن بعيدا عن أمه وأبيه . ثم دعا بالغلام — أعنى زيد بن حارثة — وخيره بين أن يبقى فى بيت سيده وسيدته خديجة وبين أن يرحل مع أبيه الى أمه وعشيرته .

واختار زيد ، وكان اختيارا لولا الثقة الواثقة بالصدق فيه ، لكان أبعد شيء عن الجرى على الألسن والتمكن فى الآذان . فان زيدا كره أن يفارق محمدا وزوج محمد وبيت محمد وآثر أن يعيش فى هذه

الاسرة الكريمة عبـــدا خادما ، على أن يرحل مع أبيه ويحيا مع أمه وعشيرته ولو سيدا مخدوما .

وكان لابد من أن يكافأ الغـلام من الرجل الكريم الشريف المحتد العظيم الخلق ، الذى يعرف موارد الامور ومصادرها ، والذى يملك من نفسه مالا يملك الناس من أنفسهم فى كل أرض وفى كل زمان . فقد نهض محمد والى جانبه حارثة ، وفى يده يد الغلام زيد بن حارثة ، وذهب الى ندى قريش فى المسجـد الحرام وفيه وجوه النـاس وشرفاؤهم وعظمـاؤهم ثم قال : أيها الناس اسمعوا ، اننى جئت اليوم أشهدكم ان زيد بن حارثة هذا خادمى وعبدى هو منذ اليوم ابنى أرثه ويرثنى ، فهو منذ الآن زيد بن محمد وليس زيد بن حارثة .

واستمع الناس الى الخبر العجيب ، وأضافوا فى قلوبهم الى أمجاد محمد مجدا حديثا ، والى أخلاقه الرفيعة خلقا رفيعا ، وتلقوا تصرفه هذا بأحسن القبول ، وراحوا يدعون زيد بن حارثة زيد بن محمد كما رغب محمـد . وما زال الأمر على هذا حتى نهاهم القرآن عن ادعاء البنوة فى قوله تعالى : ((**ماجعل الله لرجل من قلبين فى جـوفه ، وما جعل أزواجكم اللائى تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعـل ادعياءكم أبناءكم ، ذلكم قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل ادعوهم لابائهم هو أقسط عند الله ، فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم فى الدين ومواليكم ، وليس عليكم جناح فيما أخطـأتم ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما**)) .

ولم يسع المسلمين بعد هذا الا أن يصدعوا لآمر الله وان يكفوا عن نداء زيد بزيد بن محمـد الى زيد بن حارثة . وهو بعد ذلك حبيب رسـول الله صلى الله عليه وسلم . وهو والد أسامة بن زيد الذى أوصى النبى وهو على فراش الموت أن يقود جيش المسلمـين فى آخر عهده عليه السلام بالدنيا وأول عهده بالآخرة .

تلك هى النفس الكبيرة التى حملت رسالة الاسلام الى العالمين ترفع من خسيسـة البشرية وتعلى من أقدارها وتحرر العبيد على الارض وتنشر العـدل والاخاء والمساواة بين الناس ، وتدعو دعوه جادة الى الاخوة العالمية فى ظل الله رب العالمين .

وهـذه النفس الكبيرة بالفطرة زادها تنزل الوحى كبرا على كبر ، وأفاضت عليها عناية الله عظما على عظم ، فكان عليه السلام بعد نزول الوحى عليه بالقرآن العظيم قدوة تتم بها نعمة الله على الامة العربية ،

وينحقق لها بهذه النعمةسبيل النهوض عنطريق التربيةالصحيحة. فقد اجتمع الى المنهاج التربوى العظيم فى كتاب الله تعالى ، القدوة العظيمة التى تمثلت فى شخص محمد صلى الله عليه وسلم .

والحديث عن جوانب حسن القدوة فيه عليه السلام حديث تفيض به بطون السير الصحاح والروايات الواثقة .

فمن ذلك أنه عليه السلام لم يجر مع عاطفة لتعطيل حق ، مع أنه أبر الناس بالناس وارحم الناس بالناس على ماتقرره الآية الكريمة : **« لقد جاءكم رســول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم »** .

لقد كان يحب ابنته فاطمة حبا شديدا فكان اذا لقيها هش لها وضمها الى صدره الشريف ثم قال : « فاطمة بضعة منى من أحبها أحبته ومن أبغضها أبغضته » ومع شدةحبه لهذهالابنة قال فى حديث طويل : « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها » .

والقدوة فىالمناهج الاصلاحية لاينبغى أنيصرفها عنالحق صوارف من العطف أو من الرأفة والرحمة عن احترام المنهاج وامضاء حكم القانون .



احتفــال بمحمــد



اذا كانت الدعـــوات الاصلاحية المعاصرة قد اتخذت لدعوتها المقدورة شـــعارا حبيبــا الى النفوس ، وهو ما اسمته السلام العالمى فان دعوة محمد ليس لهـا عنوان الا هذا السلام .



نحتفل بذكرى مولد محمـد رسول الله امام المتقين ، وسيد المصلحين ورحمة الله تعالى للعالمين . انما نخضع لما جرى به العرف فى العصور الحديثة ، من اقامة أحفال يذكر فيها بالخير أبطـال قادة ، ورادة مصلحون ، عرفهم التاريخ ، وأسـبغ عليهم من تقديره ما جعلهم موطن تكرمة ، ومتلفت أعناق .

ولو قد كان لنا أن نتحرر من هذا العرف المستحدث ، لكان لنا أن نقول : ان النبى غنى عن كل احتفال به ، وكل ثناء عليـه ، بما ضمن الله تعالى له من علو القدر وشرف الذكر ، وما أسبغ عليه من التعظيم والتشريف ، فى كتابه الكريم . ومصداق ذلك قول الله تعالى :

« ألم نشرح لك صـدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك » .

فقد امتن الله عليه فى هذه الآيات :

أولا ــ قد أفسح له صدره حتى اتسع لهموم النبوة ، غير ضائق بكيد الكائدين ولا جحود الجاحدين ٠٠ ومن يؤت سعة الصدر وطيب النفس ، على ترادف الهموم وتذاؤب الاحداث فقد أوتي خيرا كثيرا ٠٠ وهذا المعنى لشرح الصدر يظاهره قول الله فى آية أخرى :

« **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء** » ٠

وثانيا ــ انه وضع عنه الوزر الثقيل ، يعنى طهر نفسه من الغم الذى يجده لشدة اعراض المعاندين عنه ، مع شدة حرصه على أن يستجيبوا لدعوته ، منقادين للحق الذى يدعوهم اليه ، والخير الذى يعدهم به ٠٠ وكذلك كان شأنه عليه السلام ، كان لشدة حرصه على ايمان الناس بدعوته ، يرى نفسه كأنه مسئول عن هدايتهم ، أو قادر على تحصيل الايمان لهم ، وكان ذلك يقع به على أسى بالغ وألم شديد ، على ما تقرره الآية الكريمة :

« **فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** » ٠

كذلك كان شأنه عليه السلام ، وكذلك يقول الله له « **ان أنت الا نذير** » ٠ ويقول له « **ليس لك من الامر شيء** » ٠ ويقول له : « **ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء** » ٠

وثالثا ــ انه سبحانه قد رفع له ذكره ٠ وأى رفع لذكره أرفع من أن يكون الله جل جلاله معاهدا من يعاهده على ما تقرره الآية :

« **ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله** » ٠ ثم أى رفع لذكره أرفع من أن يقرن الله طاعته الى طاعته فيقول سبحانه : « **من يطع الرسول فقد أطاع الله** » ٠ وأى رفع لذكره أرفع من ان يقسم الله تعالى بمدة عمره فيقول : « **لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون** » ، وأن يقسم بالزمن الذى كان يعيش فيه عليه السلام فيقول : « **والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر** » ٠

وأن يقسم بالمكان الذى يحل فيه فيقول :

« **لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهـذا البلد** » ، وأن يقسم للجاحدين على أنه صلوات الله عليه صادق رشـيد لا تسـتميله الاهواء ولا تضله الشهوات فيقول :

« **والنجم اذا هوى ما ضـل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى** »

ثم يقسم له هو على أن عناية الله لم تتخل عنه ولن تتخلى عنه فيقول :

« **والضحى والليل اذا سجى ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الاولى ولسوف يعطيك ربك فترضى** » .

ثم يقول الله له بعد ذلك كن حريصا على هـذا الذكر الكريم ، وهذا الشرف العظيم فيقول :

« **فاسـتمسك بالذى أوحى اليك انك على صراط مسـتقيم ، وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون** » ..

ذلك بعض ما فى كتاب الله مما يعلو به قدره الشريف ويرتفع به ذكره ، فاذا أحب المسلم أن يلتمس علو قـدره ورفعـة ذكره صلى الله عليه وسلم فى مجال التطبيق ، فانه يرى حقيقة الاسلام خفية حتى تعلنها كلمة لا اله الا الله محمد رسول الله ، ثم يرى المؤذن للصـلاة لا يصـح له أذان حتى يقول : لا اله الله محمد رسـول الله . وكل مسلم فى كل شـئون حياته لا يكاد يتنـاول عملا من أعمال نهاره وليله الا ولرسول الله فيه قضاء ، وله فيـه ارشاد . فهو صلوات الله وسلامه عليه فى الاحلام رؤيا سعيدة ، وفى القلوب خاطرة حميدة ، وعلى الالسن حديث جليل .

وغير المسلمين فى كل أقطار الارض يبذلون غاية وسعهم فى تقصى سيرته ودراسـة أحواله ، ثم يضعـونه فى موازين النبوة أنجح نبى ، وفى موازين الاصلاح الاجتماعى أعظم مصلح .

ذلك قليل من كثير تشير اليه آية الانشراح من رفع الله ذكره وتعظيمه قدره .. فأين نحن من ذلك أو من بعض ذلك !! أين قول مصنوع يخبط به لسان عاجـز ، من ذكر لا يبـلى ومجـد خالد لا يزول .. ولعله من أجل هذه المعانى لم يؤثر عن أسلافنا انهم أقاموا أحفالا لمولده أو هجراته أو غزواته ، لانهم نظروا اليه كما ينظر كل فاقه بصير ، على أنه فوق كل احتفال ، وأجل من كل تكريم .

غير أننا حين نحتفل به أو بشأن من شئونه عليه السلام ، لا يقع في أوهامنا اننا نشرفه بحديث عنه ، وانما نعتقد أننا نشرف بكل حديث نصف به حالا من أحواله أو شأنا من شئونه ، وثواب الله بعد ذلك للمؤمنين الصادقين ·

والقادة الابطال المصلحون حيال الاحتفال بهم واحياء ذكراهم أحد رجلين :

رجل خرج الى الدنيا ثم خرج عنها وقد عمل عملا صلحت به دنيا قومه · فهو مقدور مذكور ما دام الشعور به قائما والحاجه اليه بينة · فاذا زال ذلك عنه عاد ذكرى باهتة وحديثا مملولا · وأصبح على ما يقول أمير الشعراء :

لدى منزل كبيوت الكراء ... مرارا خلا ومرارا عمر
يزار كثيرا فدون الكثير ... فغبا فينسى كأن لم يزر

ورجل حرج الى الدنيا ثم خرج عنها ، وقد وضع للحياة الانسانية نماذج خيرة ومقاييس عادلة ، فهو باق بقاء الحياة الانسانية نفسها ، ومهما جد في اللحاق بالرفيق الاعلى فلا يبعد بالموت الا جسمه ، ولا يغيب عن الابصار الا رسمه ، لانه في الضمائر ذكرى لا تغفو ، وعلى الالسن حديث لا يمل ، وكلما زاده الموت قدم عهد زادته الحياة جدة حديث ، فمثله كمثل الشجرة العظيمة كلما ضربت جذورها في ظلام الارض شمخت فروعها في أجواز الفضاء · وأنبياء الله ورسله هم أحياء على الموت ، شهود على المغيب · والفطرة الانسانية سوف تظل متلفتة اليهم كما يتلفت الى الواحة الربا ضارب في ضلال الصحراء ، وقد هده الظمأ ، وأحرقه الهجير ·

ومولانا محمد رسول الله هو بين اخوانه من النبيين واسطة عقد ، وبين امته من المؤمنين مهفى روح ، وبين الناس كافة سيد من ينتسب اليه طالب حق وخير من تناخ ببابه نجائب اصلاح ·

ولهذا يكون من الظلم للحق وللخير معا ان يحتفل المسلمون وحدهم بمولده الشريف ، فانه عليه السلام قد رفع من خسيسة الانسانية كلها في كل مكان ، وكل اصلاح استهدف للناس خيرا فانه ومضة من دعوته وقبس من رسالته صلى الله عليه وسلم ·

ان أحلام البشرية اليوم وأسمى ما يتطلع اليه رشدها من خلال المذاهب الاصلاحية المعاصرة لا تكاد تجاوز ثلاثة أمور :

أحدها : طلب المساواة بين الناس بغير نظر الى جنس أو لون ٠
وثانيها : مطاردة الجوع في المجتمع الانساني ٠
وثالثها : اقرار الامن وصيانة السلام ٠

والرسالة المحمدية منذ بدأت خطواتها الاولى وضعت المساواة بين الناس وضعا يقوم الاقناع فيه مقاما لا يتأتى معه التمييز العنصرى فى حال من الاحوال ٠ وهى مع ذلك لم تمنع التفاضل فيما بينهم ، بل تخيرت له صورة تجعله يعود بالخير على المجتمع كلما أراد مريد أن يظفر بفضل فيه ، فذلك قول الله تعالى :

« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير » ٠

وليس الامر فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أمر نصوص خادعة ، ولكنه أمر تطبيق صارم ، وآية ذلك أن المجتمع الاسلامى لم يعتز بالالوان والاجناس ، ولم ينظر الى القضية القائمة عليها نظرة اعتبار أو احترام ، وحديث بلال مع عمر معروف ٠ بل ان التاريخ الذى دونه المسلمون ليتهكم أشد التهكم بأولئك الاجلاف الذين لم تصدهم سماحة الاسلام عن الاعتزاز بمبادىء التمييز العنصرى ٠ وان القوم ليضحكون أشد الضحك حين تروى لهم قصة القاضى سوار مع جلف من أولئك الاجلاف ٠٠ ويوم شبت نار العصبية فى المجتمع الاسلامى ، وأخذ التفاضل بالعروق وبالاحساب والانساب يحتل مكان التفاضل بالتقوى ومكارم الاخلاق ، بدأت الامة العربية الاسلامية تجد ريح التفكك ، وبدأت شمس الدولة نفسها تجنح الى الغروب ٠

فأما ما يتصل بحلم البشرية فى مطاردة الجوع عن البشر ، وفى اسباغ ظلال الامن عليهم ، فحسب الفاقه البصير أن يقف وقفة تأمل أمام قول الله تعالى :

« فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » ٠

فقد طلب الله تعالى من خلقه أن يعبدوه لقاء ما أنعم عليهم بنعمتى الطعام والامن ، مع أن نعم الله جل شأنه على خلقه لا يحصيها محص ، ولا يعدها عاد ٠ وقد اعتبر القرآن الجوع والخوف من أشد البلايا التى تخف بها عقوبة الله الى الجاحدين ، فذلك حيث يقول جل شأنه :

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيهـا رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لبـاس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » ..

وعلى قدر ما اعتبر القرآن الجوع والخوف نقمة شديدة ، جعل بذل الطعام للمحتاجين اليه عملا تتفتح به أبواب الجنة للمطعمين ، فذلك حيث يقول الله جل شأنه :

« ان الابرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا . يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا ويطعمون الطعام على حبه مسـكينا ويتيما وأسـيرا انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا » .

وكذلك جعل الله تبارك وتعالى الامن جزاء طيبا للذين يؤمنون ايمانا صحيحا ويعملون عملا صالحا ، والى هذا المعنى تشير الآية الكريمة :

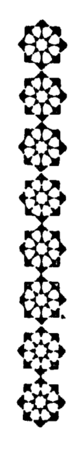
« الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الامن وهم مهتدون »

وهكذا تتضح عناية القرآن بقضيتى الطعام والامن فى المجتمعات التى ترعى شئونها رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

واذا كانت الدعوات الاصلاحية المعاصرة قـد اتخذت لدعوتها المقدورة شعارا حبيبا الى النفوس ، وهو ما أسمته السلام العالمى ، فان دعوة محمد ليس لها عنوان الا هذا السلام ، وهـذا العنوان هو « الاسلام »

ومعنى الاسلام مع معنى السلام يعودان الى أصـل واحـد فى اللغة التى نبت بين أهلها محمد ، ونزل على أسـاليبها القرآن . فالسلام جزء من طبيعة الاسلام ، وحقيقة من الحقائق التى يحيا عليها المسلم ، وعليها يموت . وذلك كله مع الفرق الواضح بين المجال الذى يعمل فيه السلام العالمى والمجالات التى يعمل فيهـا الاسلام .

الرسول .. فى القرآن



من العجيب أن فى امة محمد عليه السلام من رفع - جهلا أو خبثا - الى منزلة الاله .. ولكن - عليه السلام ظل على مر القرون فى منزلته من البشرية والعبودية لله .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان هذا القرآن مأدبة الله فى الارض فتعلموا من مأدبته »

وفى هذا الحديث يشبه النبى عليه السلام القرآن فى دعوة الله الى الناس الى ما فيه من خير ومنافع ، بالمائدة من الطعام يدعى الناس اليها لينتفعوا بما فيها من ألوان الطعام . وقد أرشدنا صلوات الله وسلامه عليه الى ان نجيب دعوة ربنا الى مأدبته لنتعلم منها ما ينفعنا فى شئون الدنيا وشئون الدين .

وأول ما يسترعى انتباه الراوى للحديث عن النبى من آيات القرآن، هى تلكم الآيات التى وصفته بأنه بشر يعرض له ما يعرض لسائر البشر ، فهو يأكل ويشرب ، وينام ويستيقظ ويرضى ويغضب ، ويحيا ويموت ، ويسر ويحزن ، على ما يقول الله تعالى « **قل انما أنا بشر**

مثلكم يوحى الى انما الهكم اله واحـد » ، وعلى ما يقول « **واصبر وماصبرك الا بالله ولا تحزن عليهمولا تك فى ضيق ممـا يمكرون** » وكما يقول سبحانه « **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفئن مت فهم الخالدون** » ، وكما يقول « **فلعلكباخع نفسك علىآثارهم انلم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** » .

وهذه الآيات وأمثالها حين تصفه بالبشرية عليه السلام نقـارن فى القرآن آيات أخر تصفه بالعبودية لله رب العالمين كما فىقوله تعالى « **وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة منمثله** » ، وكما فى قوله « **سبحان الذى أسرى بعبده** » ، وكما فىقوله « **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب** » ، وكما فىقوله « **تبارك الذىنزل الفرقان على عبده** » وكما فى قوله « **أليسالله بكافعبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فما له من هاد** » .

وهذه الآيات وتلك الآيات فىوصفها اياه عليه السلام بالبشرية والعبودية لله رب العالمين ، انما تستهدف « أمرين » : تبيان الحق وتقريره ، وأخـذ الطريق على أولئك المعـاندين الذين يطلبون اليه ماليس فىطاقة البشر ، ولا سبيللهم اليه كما تشير الى ذلك الآية الكريمة « **وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنـا من الارض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهـــار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كســفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف او ترقى فى السـماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل ســـبحان ربى هل كنت الا بشرا رســولا** » .

هذا أحد الأمرين ، والامر الثانى تطهـيره من الغـلاة الذين قد ينسـاقون خبثـاء أو جاهلين الىالسمو به فوقطبيعةالبشر ووضعه فىمنازل الألوهة ... ومنالعجيبفى هذا المعنى أن من أمته من رفع جهلا أو خبثا الى منزلة الاله ، ولكنه هو عليه السـلام ظل على مر القرون فى منزلته من البشرية والعبودية لله فلميتحدث تاريخ واثق عنه الا بأنه عبد الله ورسوله ، وفيض رحمته سبحـانه للعـالمين ، وعندى أن ذلك مردود الى هذه الآيات التى أدامت على الاسمـــاع وصفه بأنه عبد الله ورسوله .

ولئن كانت هذه الآيات التى أدامت على الاسماع وصفه بالبشرية والعبودية لله ، ولئن كان ذلك قدحال بين الغلاة وبين رفعه الىمنزلة

الألوهية ، ولقد كانت هذه الآيات نفسها مجالا لعناد المعاندين وتكذيب المكذبين . فأما المعاندون فقد ساقهم الحسد الى معاندته وانكار رسالته كما يقول الله تعالى حكاية عن اليهود « **أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما** » ، والمراد بالناس هنا محمد وأصحابه ، والمراد بالحاسدين هم اليهود ، وكأن الآية تقول « **انكم أيها اليهود تنكرون نبوة محمد مع أنكم تعترفون بهاقي آل ابراهيم** » ، وأصرح من هذه الآية آية الانعام « **وما قدروا الله حق قدره اذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا** » .

هؤلاء هم المعاندون الذين يعرفون الحق وينكرونه عنادا متوسلين الى انكاره بأوهى الحجج ، وأرذل الاباطيل ، فأما المكذبون من غير أهل الكتاب وهم كفار قريش وأمثالهم فقد كانوا ينكرون رسالة النبى لانه من البشر كما قال تعالى عنهم ((**وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا**)) ، وقد ألقمهم القرآن حجرا لا يستطيعون معه قولا حين قال ((**ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون**)) ، وذلك ردا على قولهم ((**وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الامر ثم لا ينظرون**)) .

تلك كلمات حول الآيات التى تحدثت عنه عليه السلام بشرا يوحى اليه وعبدا لله أرسله للعالمين رحمة ، فأما أخلاقه عليه السلام فحسبنا قول الله فيه « **وانك لعلى خلق عظيم** » ، وخلقه هذا العظيم بكل ما ينطوى عليه من مفردات الصفات الكريمة لم يتهيأ له فقط بعد الرسالة ولكنه خلق ملازم له عليه السلام من قبل ومن بعد ، واجماع أهل السيرة أنه كان معروفا بين قومه بمكارم الاخلاق ، واختيار زيد بن حارثة البقاء معه عبدا على اللحاق بأبيه حرا دليل أى دليل على خلقه العظيم عليه السلام ، فقد روى الثقات من أهل السير أن زيد بن حارثة لما كان غلاما خرجت به أمه فى زيارة أهلها ، وفيما هى به فى الطريق أصابتها رماح العرب وبيع الغلام مع أمه فى سوق الرقيق ، وظل الغلام يتنقل من يد الى يد حتى صار الى بيت محمد بن عبدالله بن عبد المطلب قبل أن يوحى اليه ، وألف الغلام محمدا وأحبه محمد وعاشا معا كما يعيش الخادم مع سيد رحيم ، وكما يعيش السيد مع خادم أمين ، وكان هناك رجل مفجوع هو والد زيد تقيمه أرض وتقعده أرض سعيا وراء ولده وبحثا

عنه ، وكان الرجل ككل عربي ينشد الشعر يتخفف به من أسى ثائر بين جنبيه وهو يقول :

أبكي على زيد ولم أدر ما فعل — أحي فيرجى أم أنى دونه الاجل
تذكرنيه الشمس عند غروبها — وتعصف ذكراه اذا غربها أفل
وان هبت الارواح هيجن ذكره — فيا طول ماحزن ويا طول ماوجل
سأعمل نص العيش في الارض جاهدا — ولن أسأم التطواف أو تسأم الابل
حياتي الى أن تستجيب منيتي — وكل امرىء فان وان غره الامل

ولم يكن الرجل ضاربا في الارض بحثا عن زيد يرتاده حيا أو ميتا ، وفي عينه دمع لا يكف ، وبين جنبيه حزن لا ينعزى حتى فتح الله له من الفرج بابا ، فقد أخبر المخبر البشير ان ولده زيدا عند رجل قرشي في مكة يدعى محمد بن عبد الله بن عبد المطلب . وذهب الرجل الى محمد ليجد عنده الرحمة الراحمة والانصاف الكريم ، وجيء بزيد وقال له أبوه ما يقال في مثل هذه الحال ، ولكن زيدا قال يا ابي « لن أدع الحياة مع محمد ولن أوثر عليه أحدا من الناس حتى أبي » ولم يجد محمد بدا من أن يخرج بالولد الى مجامع قريش ليعلن اليهم انه قد تبنى زيد بن حارثة غلامه وأنه لم يعد زيد بن حارثة بل صار زيد بن محمد بن عبدالله ابن عبد المطلب وظل الناس ينادونه زيد بن محمد حتى بعث الله محمدا رسولا للعالمين ، ونزل قول الله تعالى : ((**ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفورا رحيما**)) وبهذا القرآن عاد زيد ليكون من جديد زيد ابن حارثة .

ومما وصفه الله به في القرآن الكريم « **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر** » .

وليس يعرف التاريخ لانسان حظا من رقة القلب وجميل الرفق ولين الخطاب كما يعرف ذلك لمحمد رسول الله ، وكلمته عليه السلام لعائشة رضي الله عنها في هذا المعنى وصف صادق لخلقه الشريف . روى الثقات انه كان في حجرة عائشة واذا صوت فظ ينادي يا محمد .. يا محمد .. فقال عليه السلام بئس أخو العشيرة ثم لما دخل الرجل عليه هش له وانبسط اليه حتى اذا

خرج قالت عائشة حين سمعت الرجل قلت بئس أخو العشيرة، فلما رأيته هششت له وانبسطت اليه ، فقال عليه السلام يا عائشة متى عهدتني فاحشا ؟ ثم قال أن من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من هجره الناس اتقاء سوء خلقه .

ومما وصفه القرآن به قول الله فيه : « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** »

ولقد كان النبى كذلك ، فهو بالمؤمنين رءوف رحيم ، وهو بغير المؤمنين عزيز عليه أن يعنتهم بمقدار ما هو حريص على ايمانهم ، وذلك هو مقتضى أنه رسول اليهم من أنفسهم أو من أنفسهم على قراءة آيتان تشيران الى أنه عليه السلام كان ينظر بعدم الاعنات وبالمزيد من الحرص الى الناس جميعا حتى غير المؤمنين .

يقول ابن عباس رضى الله عنهما لما أسروا الاسارى قال رسول الله لابى بكر وعمر ما ترون فيهم . قال أبو بكر هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة وعسى الله أن يهديهم للاسلام . وقال عمر : لا والله يا رسول الله ، ما أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكن تمكننا من ضرب أعناقهم . يقول عمر فهوى رسول الله ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت .

هذه احدى الآيتين ، والثانية قول الله لنبيه « **استغفر لهم ، أو لا تستغفر لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدى القوم الفاسقين** » .

والآية كما نرى اخبار له عليه السلام بأنهم لا يغفر لهم ، ومع ذلك كان يستغفر لهؤلاء المنافقين ، وفى استغفار النبى لهم على هذه الصورة دليل أى دليل على سعة خلقه وكرم نفسه ولين جانبه عليه السلام .

تلك اشارات الى ما فى القرآن الكريم من الدلائل على خلقه الرفيع العظيم ، فأما ما اختصه به الله من تكاليف فى نفسه وفى بيته لم يكلفها سائر المسلمين ، فان هذا الاختصاص ينصره منطق الفطرة العادل ، ذلك أن الانسان كلما سمت مكانته ثقلت أعباؤه ، وزادت قيوده ، ودعوات الاصلاح فى كل زمان ومكان لا تبلغ غايتها من النجاح الا اذا كان المصلحون فى أعين الناس وفى واقع الامر أثقل أعباء وأكثر قيودا .

بهذا الادراك لقيم الرسالات الاصلاحية يتهيأ لنا أن نفهم مثل قول الله تعالى :

« يا أيهـا المزمل قم الليـل الا قليـلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ، انا سنلقى عليك قولا ثقيلا » .

فقـد أمر النبى هنا ما لم يؤمر به المسلمون ، وكلف عليـه السلام ما لم يكلفوا ، من حيث كان السبب الموجب لقيام الليل موجودا فيه عليه السلام دون سائر المؤمنين ، وهو أنه مكلف ابلاغ الرسالة الى الناس .. ومن هذا القبيل مواصلته الصـيام معللا ذلك بأنه يبيت عند ربه يطعمه ويسقيه ، ومثل ذلك اباحة الزواج له بأكثر من أربع ، هذا فى نفسه ، وأما فى أهل بيته ، فقول الله تعالى :

« يا نساء النبى لستن كأحد من النساء ، ان اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبـه مرض وقلن قولا معـروفا ، وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجـاهلية الاولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله ، انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ، واذكرن مايتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة ان الله كان لطيفا خبيرا » .

فهذه الآيات تشير الى أنه ـ عليه السلام . له وضع خاص فى نفسه وفى بيته يتسق مع طبيعة الرسالة التى أمر بابلاغهـا الى الناس حتى يعينه ذلك كله على آدائها بأيسر طريق .

وهذا باب واسع من القول يحتـاج الى بيـان طويل ، ونقاش كثير بمقدار ما يحتاج الى تأمل عميق ودراسات اجتماعية ونفسية وسياسية ذات مجالات وسيعة .

ثم يأتى الحديث الخاص بطاعته وحبه عليه السـلام ، وحسبنا فى هذا من القرآن الكريم قول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والى الرسول ذلك خـير وأحسن تأويلا » .

ثم قوله تعالى :

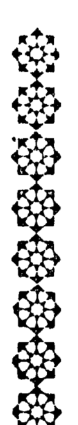
« قل ان كنتم تحبـون الله فاتبعـونى يحببكم الله ويغفر لـكم ذنوبكم والله غفور رحيم ، قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين » .

وقد كان أصحابه رضى الله عنهم ينزلون على أحكام هذه الآيات فى تسليم مطلق . واذعان كامل . يروى الثقات أن أحد أصحابه هؤلاء كان يقصد المسجد ، وفيما هو فى الطريق اليه سمع النبى وهو يقول : « أيها الناس أجلسوا ، اجلسوا أيها الناس » فحين انتهى الى مسمع الصاحب صوت الرسول آمرا الناس بالجلوس جلس حيث هو فى الطريق أو على باب المسـجد ، لم يزد خطـوة واحدة بعد أن انتهى الصوت الى مسمعه ، ولم يزل كـذلك حتى خرج النبى ورآه على هذه الحال فقال له ما أجلسك هـذا المجلس قال يا رسول الله سمعتك تقول : « أجلسوا أيها الناس ، فجلست حيث أنا » فقـال له النبى : « زادك الله طاعة » . ويقول فى حب أصحاب النبى أحد المعاصرين « ما رأيت أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدا » .

وهكذا كان أصحابه يحبونه ويطيعونه ، وهكذا ينبغى لكل مسلم أن يحبه ويطيعه لكى تتحقق له حقيقة الايمان .



القيـادة .. والشورى



ان اكرم الوان التصرف التى تصل القائد بالجندى ان يستنصحه ويستشيره .. حتى اذا استبان له وجه الحق نزل على ذلك راضيا مرضيا .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ملء نفوس المسلمين اجلالا وتكريما وحبا واحتراما . ومع ذلك كان حريصا أشد الحرص على الابتعاد بأصحابه عن سوء الظن : مهما يكن سوء الظن به بعيدا .

ومن الشواهد على هذا ما ورد فى صحاح الأحاديث من أنه صلى الله عليه وسلم كان معتكفا فى المسجد فى العشر الاواخر من رمضان على عادته. وجاءت زوجه أم المؤمنين صفية رضى الله عنها تزوره فى معتكفه ، فجلست اليه ساعة تحدثه ، فلما قامت خارجة الي بيتها قام معها يودعها ، وفيما هما فى الطريق مر بهما رجلان من الأنصار ، فلما رأياه مع إمرأة فى الطريق أدركهما الحياء فرجعا ، فقال لهما عليه السلام : « على رسلكما » يعنى لاتسمحا للفزع من سوء الظن أن يخالط قلبيكما من حيث رأيتمانى مع امرأة فى طريق

عام « فان هذه المرأة هى زوجى صفية بنت حيى بن أخطب » .

فقال الرجلان : يارسول الله سبحان الله وهل نظن بك الا خيرا ؟

فقال عليه السلام : « ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم وانى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئا . »

وهذه الواقعة على مانرى تحتمل أمرين ، كلاهما يمكن أن يكون مرادا للمتأملين :

فأما أحدهما : فمرده الى مايجب على القادة والكبار وأصحاب الدعوات من شدة الحذر ، والتنائى بأنفسهم عن مواطن الريب فى كل تصرف يمكن أن يكون مجالا لسيئات الظنون .

وأما الآخر : فخشيته عليه السلام أن يهلك الرجلان بسوء الظن فى رسول الله ، فأوضح لهما الحقيقة ، وجلى لهما الأمر ، رأفة بهما وحرصا عليهما ، وكان تصرفه هذا مصداقا لقول الله فيه : ((**لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**)) .

ومما يتصل بهذه المعانى تصرفه عليه السلام حين أجازت زينب ابنته رضى الله عنها زوجها أبو العاص بن الربيع . ولكى يتضح المعنى المقصود ويستبين ، لابد أن نذكر هذه القصة كاملة فى هذا المقام .
فحين بدأ النبى دعوته فى مكه ، وجاهر قريشا بالعداوة فى ذات الله ، قال بعضهم لبعض : أن محمدا رجل خال من الهموم ، فاذا أحببتم أن تشغلوه عن معاداتكم وتسفيه أحلامكم ، فهلا تذكرتم أن بناته أزواج لأعيانكم ، وهلا حرضتم رجالكم على تطليق بناته ، حتى يمتلىء صدره بالهم المقعد المقيم ، وكانت فكرة خبيثة ، تقبلتها الآذان بالانصات والعقول بالقبول ، ومضى القوم سراعا الى تنفيذها .

فمشوا الى عتبة بن أبى لهب وكان زوجا لرقية : فقالوا له : طلق رقية بنت محمد ، ونحن نزوجك أى امرأة شئت من نساء قريش .

فقال : ان زوجتمونى بنت الوجيه سعيد بن العاص ، طلقت لكم رقية .

فزوجوه كما قال ، وطلقها كما وعد .

ثم مشوا الى عتيبة بن أبى لهب . وكان أسلس قيادا من أخيه ، فطلق أم كلثوم بنت محمد ، دون أن يشترط شرطا أو يطلب منفعة .

ثم مشوا الى أبى العاص بن الربيع . وكان زوجا لزينب ، فقالوا له: طلق زينب بنت محمد ونحن نزوجك أى امرأة شئت . فقال لا والله ، لا أفارق زوجى ولا أطلقها ، وما أحب ان لى بدل زينب امرأة أخرى من قريش .

ومع أن أبا العاص كان ابن أخت لخديجة ، وكانت زينب بنت خالته ، ومع أنه قد يتبادر الى الذهن أنه أبى طلاقها رعاية للقرابة ، فاننا لانرى هذا الرأى — وان ذهب اليه بعض الناس — وانما نرى أنه أبى تطليق زينب أنفة من أن يكون مأمورا ، وايثارا لزوجته التى يحلها من قلبه بالمحل المكين .

والذى يزكى مانذهب اليه ، ويجعلنا نأخذ به دون سواه ، ما تلا هجرة النبى من مكة الى المدينة من الأحداث . فقد كان أبو العاص رجلا عظيم الهمة شريف النفس كريم الوفاء ، كشأن كثير من أشراف العرب .

ففى غزوة بدر التى انتصر فيها المسلمون وهزم المشركون . كان أبو العاص فى جند المشركين ، ووقع فى أسر المسلمين ، ولما بعث أهل الأسارى من مكة لفداء أقربائهم من الأسر كل بما أطاق ، بعثت زينب زوج أبى العاص فى فداء زوجها بمال ، فيه قلادة ثمينة كانت خديجة قد أعطتها ابنتها عند زفافها هدية زواج .

قال أهل السير : فلما رأى النبى القلادة عرفها ورق لها رقة شديدة ، وقال يخاطب جماعة المسلمين : أيها الناس ان رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها ، وتردوا عليها مالها ، فافعلوا . فأطلقوا أبا العاص وأعطوه المال والقلادة .

وقد يتبادر الى الأذهان أن النبى جامل بهذا التصرف ذكرى زوجته العزيزة التى زاملته فى أشد أيامه قسوة ، وكانت له خير معوان ، وفى هذا مايساير منطق الفطرة ، ويماشى أدب الاسلام ، فان للمجاهدين السابقين فى كل ثورة اصلاحية منزلة فوق منازل الناس .

ولكن الذى يتبادر الى ذهنى ، ويليق بما عرف عن أخلاق محمد وسيرته وسلوكه هو أنه طمع من أبى العاص فى أن يبعث اليه بزينب ، وكانت قد أسلمت منذ بلغتها دعوة أبيها ولم تقدر على اللحاق به فى

المدينة . بل انه عليه السلام كان قد طمع فى أن يسلم أبو العاص نفسه ، لأن شرف نفسه الذى أبى عليه تطليق زينب ، لابد أن يجتمع معه شرف الاسلام .

ومن أجل هذين المعنيين . وليس من أجل المجاملة لذكرى زوجه، أطلق الأسير ورد القلادة والمال .

◎❖◎

ويؤيد ماذهبنا اليه من حسن ظن النبى بأبى العاص ، وعظم أمله فيه . مايرويه ابن هشام فى السيرة النبوية حيث يقول :

خرج أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله تاجرا الى الشام ، وكانت زينب قد هاجرت الى المدينة وعاشت مع أبيها ، قال ابن هشام : وكان — يعنى أبا العاص — رجلا مأمونا قد خرج بمال له واموال لرجال من قريش ابضعوها معه . فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلا الى مكة ، لقيته سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرب المدينة . فأخذوا مامعه ، وجد هو فى الهرب منهم ، وانتظر حتى جن الليل ، فدخل المدينة ، وجاء زوجته زينب بنت محمد رسول الله فاستجار بها ، على عادة العرب فأجارته . وقدمت السرية المدينة بما حصلوا عليه من مال أبى العاص .

فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم الى صلاة الفجر ، فكبر وكبر الناس معه ، صرخت زينب من صفة النساء — وهو المكان الذى يصلى فيه النساء بمؤخرة المسجد — قائلة : أيها الناس انى قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

قال ابن هشام : فلما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة . أقبل على الناس بوجهه وقال : أيها الناس ، هل سمعتم ماسمعت ؟ قالوا : نعم . قال عليه السلام : أما والذى نفس محمد بيده ماعلمت بشىء من ذلك حتى سمعت ماسمعتم ، انه يجير على المسلمين أدناهم .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل على ابنته زينب فقال : أى بنية ، اكرمى مثواه : ولا يخلصن اليك ، فانك لاتحلين له ، لأنك مسلمة وهو مشرك .

قال ابن اسحاق : ثم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث

الى السرية الذين أصابوا مال أبى العاص ، فقال لهم : ان هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالا ، فان تحسنوا وتردوا عليه الذى له فانا نحب ذلك ، وان أبيتم فلكم ماتحبـــون . فقالوا : يارسول الله بل نرده عليه كله لايفقد منه شيئا صغيرا كان أو كبيرا .

ومضى أبوالعاص بماله كاملا الى مكة ،وأعطى كلذى مال من قريش ماله ، ثم نادى : يامعشر قريش ، هل بقى لأحـد منكم عندى مال لم يأخذه ؟ .

قالوا : لا ، فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما .

قال : فأنا أشـهد أن لا اله الا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، والله مامنعنى منالاسلام عنده وأنا فىالمدينة ، الا تخوف أنتظنوا أنى انماأردت أن آكلأموالكم ، فلما أداها الله اليكم وفرغتمنها ، أسلمت .

ثم خرج فقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم . فرد عليه زينب على الزواج الاول ، لم يستأنف عقدا جديدا .

⊙❖⊙

وكان رســول الله صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا ، وكان فى الوقت نفسه قائد جيش ومربى أمة ومقيم دولة ، وكان فى كل ذلك قدوة حسنة للناس فى قوله وعمله وسلوكه وتصرفه .

وقد تحدثنا عن بعض خصائصه فى مجال الاقتداء به عليه السلام وأحب أن أزيد هنا أنه عليه السلام كان لايستبد برأى ، ولا يفرض على الناس رغبة ، ولكنه كان يشاور أصحابه على ماتشير اليه الآية الكريمة : ((**فاعف عنهم واســتغفر لهم وشاورهم فى الامر ، فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين**)) .

ومن الصور التى تدلنا على اهتمامه بالشورى وحرصه عليها ، وأخذه بما يتراءى له أنه الحق فيها ، ما يروى عن رجال من بنى سلمة ، فقد ذكروا أن الحباب بن المنذر قال له ، وقد نزل صلى الله عليه وسلم بالمقاتلين المسلمين قبيل معركة بدر منزلا لم يره الحباب مكانا صالحا موصلا الى النصر ، فتقدم الى رسول الله يسأله قائلا له : يارسول الله أرأيت هذا المنزل الذى نزلته بنا ، أهو منزل أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدم عنه ولا أن نتأخر ، أم هوالرأى والحرب والمكيدة ؟

قال النبى : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

فقال الحباب : يارسول‌الله ، ان هذا المنزل ليس‌بالمنزل‌الذى‌يؤدى الى الغاية التى نتغياها من‌الانتصار على‌الاعداء ، فانهض بالناس‌حتى تأتى أدنى ماء من القوم فتنزله ، ثم نغور ماوراء هذا الماء ، ثم نأخذ فى قتال القوم ، فنشرب ولا يشربون .

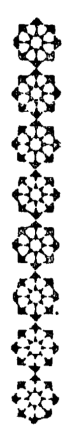
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقدأشرت بالرأى. ونهض بمن معه من الناس ، وسار حتى أتى أدنى ماء من الاعداء نزل عليه ، وأمر أن يبنى حوض ويملأ بالماء .

وان أكرم ألوان التصرف التى تصـــل القـــائد بالجندى ، أن يستنصحه ويستشيره ، حتى اذا استبان له وجه الحق ، ووضحت أمام عينيه سبل النصيحة ، نزل على ذلك راضيا مرضيا ، ومضى الى الغاية التى اقتنع بسـلامة الوسيلة اليها ، وذلك فيما أرى هو معنى قول الله تبارك وتعالى : ((**فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين**)) .

فليس هنا استبـداد بالرأى ، وليس هنا كذلك استسلام لرأى الجماهير ، فان الاستبداد كالاستسلام كلاهما افساد للأمر وضلال عن سواء السبيل .



نحن والمسيح



ان الحديث عن المسيح وتمجيد ذكراه هو تمجيد لاولئك الاخيار الذين اصطفاهم الله تعالى رادة للخير ، وقادة للبر ، وهداة الى أكرم ألوان الاصلاح .

كان ذلك منذ حوالى خمسة عشر عاما خلت ، وانا يومئذ وزير الاوقاف فى حكومة الثورة ، وكنت رئيس الوفد المصرى الذى أسندت اليه الثورة مهمة المشاركة فى الاحتفال بتتويج الملك حسين بن طلال ملكا على الاردن ، وكنا وفدين ، أحدهما برياسة أخى المفضال الدكتور نور الدين طراف باعتباره وزيرا للصحة للمشاركة فى تتويج المرحوم الملك فيصل الثانى ملكا على العراق والوفد الثانى برياستى باعتباره وزيرا للاوقاف للمشاركة فى الاحتفال بتتويج الملك حسين بن طلال ملكا على الاردن .

ولما انتهت الاحتفالات كان لا بد لمثلى أن ينتهز الفرصة المتاحة لزيارة القدس الشريف والصلاة فى المسجد الاقصى الذى هو ثالث المساجد التى تشد اليها الرحال ، ومضيت مع رفقائى من الحرس الحكومى الى القدس من عمان .

وبعد ان زرت المسجد الاقصى ومسجد الصخرة ونعمت حينا بالذكريات الطيبة المباركه التى تشيع فى أجواء هذه المدينة المقدسة وقع فى نفسى أنه لابد من زيارة كنيسة القيامة ، وتسارعت خطانا الى الكنيسة ، وهناك تقدمنا شاب عربى مسلم بيده مفاتيح الكنيسة وقد ورثها عن أبيه الذى ورثها عن اباء كثيرين ، وتقدمنا الشاب يدلنا على الطريق ويشرح لنا ماتحتويه الكنيسة من مقدسات .

وبالقرب من حجرة تنطلق منها رائحة زكية تملأ الجو بالشذى العطر أخذت عيناى صورة قبر مستطيل تغطية قطيفة جميلة وغمرة نور خافت ، وقد جلس الى جانب القبر فى خشوع خاشع قس جميل الهيئة ، وراح ينظر الى والعجب يتجلى على وجهه ، وقد أحسست كأنه يدعونى الى مشاركته المتعة الروحية التى ينعم بها ويعيش فيها ، وتقدمت خطوات وجدت نفسى بعدها جالسا الى جانب القبر الذى يعرف بأنه قبر السيد المسيح .

ومع أننى مسلم أومن بكتاب الله وبمحمد رسول الله ، وبالكتاب الكريم الذى يقول ((**وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه وكان الله عزيز حكيما**)) .

اقول مع اننى أومن بهذا ايمانا لايخالطه شك ، وأومن أن المسيح لم يقتل ولم يصلب ولم يقبر .. فاننى شعرت بالخشوع يملأ صدرى وبالدموع تترقرق فى عينى ، وادركت الجلال يحيط بى من كل جانب احتراما لذكرى المسيح عليه السلام .

ومن هنا أدركت يومها أن الانسان يتأثر فى مثل هذا المكان بما يملأ نفسه من ذكريات ، لا بما يكون فى هذه الاماكن من اشخاص . فاننى كما قلت مع ايمانى بأنه ليس هنا هنا شخص ميت ، لم أملك دمعى ولم يحل بينى وبين الخشوع لجلال الذكرى حائل ..

وهكذا تصورت الذين يختلفون اختلافا متصارعا حول ابى الشهداء الحسين رضى الله عنه ، وحول سيدتى زينب رضى الله عنها . . أحسست انهذا الخلاف لا طائل تحته ولا ثمرة له ولاخير فيه ، فان الذين يذهبون لزيارة مولانا الحسين ومولاتنا زينب وسائر آل بيت النبى ، انما تمتلىء صدورهم بالذكرى الجليلة ، وهذه الذكرى قائمة فى الصدور ماثلة امام العيون مهما يكن أمر

تلك الاجساد الطاهرة ، ومهما تكن موجودة فى هذه الامكنة أو غير موجـودة ..

وبعـد ان قضيت مأربى من الجلوس الخاشع فى تلك الحجرة المقدسة خرجت ، واذا مواطن مسيحى تهتف فى وجهه الغرابة .. يروح يسألنى كيف يكون مثلك على مثل هذه الحال فى مثـل هـذا المكان ؟ ..

وأذكر اننى قلت له يومذاك : ان تقديرى لذكرى المسيح لايقل عن تقديرك . فقال كيف؟ قلت انك حين تسمع القرآن الكريم وترى تكريمه لمريم وتكريمه للمسيح واتبـاع المسيح ، فانك سترى أمرا عجبا لا تملك معـه الا ان ترى المسلم ، كمـا يرى المسلم نفسه ، انسانا صاحب عقيدة تفرض عليه أن يحترم انبياء الله جميعا ، وفى الذروة منهم موسى وعيسى ، وان يسمو بالعذراء البتول مريم عليها السلام فوق الشبهات ، وفوق قالة السوء فيها من المجرمين الحاقدين الاغبياء الجاهلين ..

ثم تلوت عليه من كتاب الله ما لم يكن قد سمع من قبل ، وأخبرته فيما اخبرته بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت له فيه : ان اصحاب النبى سألوه أن يصف لهم نفسه ، فقال محمد عليه الصلاة والسلام أنا دعوة ابى ابراهيم وبشرى أخى عيسى .

وقال الرجـل زدنى شرحا ، وكان فيما يبـدو مثقفا مرهف الحس ، لا يصرفه عن قراءة القرآن وفهم الاسـلام الا صوارف تافهة من التعصب الرخيص ..

ولم أتمالك أن رحت اشرح له كيف ان محمـدا دعوة ابراهيم وكيف ان محمـدا بشرى عيسى عليهم جميعا افضـل الصـلاة والسـلام ..

قلت له : استمع الى قول الله تعالى فى سورة البقرة ((**واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت (يعنى من الكعبـة) واسماعيل ربنـا تقبل منا انك انت السميع العليم ربنا واجعلنـا مسـلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينـا انك أنت التـواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم . يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم**)) .

فمعنى قول النبى انه دعـوة أبيـه ابراهيم واضحة فى الآية فى قوله سبحانه على لسان ابراهيم ((**ربنا وابعث فيهم رسولا منهم**))

يعنى ربنا ابعث فى العــرب رسولا منهم » فهــا قــد بعث الله فى العرب محمدا يتــلو عليهم آيات الله ويعلمهم الكتــاب والحكمــة ويزكيهم ويطهرهم وينمى فيهم مكارم الاخلاق » وهذا معناه ان الله قد استجاب لابراهيم دعوته وان محمدا هو ثمرة هذه الدعوة .

هذا واما أنه بشرى عيسى فلكى تدرك معنى هــذا القــول اقــرأ معى قول الله فى ســورة الصف « **واذ قال عيسى ابن مريم يا بنى اسرائيــل انى رسول الله اليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمــد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هــذا سحر مبين . ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام والله لا يهدى القوى الظالمين** » ..

« فهذا القول الكريم فى كتاب الله ينطوى على المعنى الواضح الذى أشار اليه النبى الكريم محمد وقرر فيه أنه دعوة ابراهيم وبشرى عيسى صلوات الله عليهم وعلى جميع اخوانهم من الانبياء والمرسلين .

ولم أشأ أن أطيل الحديث مع المواطــن المسيحى المفضال الذى التقيت به فى كنيسة القيامة الى أبعد من هذا المدى .

والحقيقة اننى لم أكن أقول هذا الكلام منفعلا بعاطفة وقتية ، ولا متأثرا بموقف خاشع كنا فيه ، ولكننى كنت اقول ذلك وظللت اقوله بعد ذلك ومازلت أقوله ، لانه جزء من عقيدتى ، وثمرة من ثمرات ايمانى ، وليس يجدر بمسلم ان يتصــور هــذا اللون من الحديث تصورا يستشعر معــه شــيئا من الغرابة أو نوعا من الشذوذ ، فان الحديث عن المسيح وتمجيد ذكراه هو تمجيــد لاولائك الاخيار الذين اصطفاهم الله تعالى من بنى الانسان ، رادة للخير وقادة للبر وهداة الى اكرم ألوان الاصلاح ، والله تعالى يقول فى كتــابه العزيز « **الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ان الله سميع بصير** » .. ويقول سبحانه « **ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العــالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم** » ..

وأكرم مظهر من مظاهر الاصطفاء شرف المنبت والأم وعاء هذا الشرف الرفيع ، وفى تشريف مريم أم المسيح عليها السلام يقول الله تعــالى « **واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهــرك واصطفاك على نساء العالمين يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين** » ..

هكذا جرت السنة الالهية ان يكون اختيار الله تعالى رسله وانبياءه مبرأ من الشوائب مطهرا من الادناس جامعا لشتى الفضائل على ماتشير اليه الاية الكريمة « الله أعلم حيث يجعل رسالته » ..

وتأكيدا لهذه السنة الالهية الجليلة يشير سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أنه طاهر مطهر ؛ لم يلحقه فى نسبه الشريف دنس من أدناس الجاهلية قبل الاسلام ، وانه عليه الصلاة والسلام ولد فى عصمة كريمة من الله ، لشرف البطون وشرف الظهور ، فذلك حيث يقول صلوات الله عليه .. « ان الله اصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم فأنا خيار من خيار » ..

واذ كان بين عيسى وبين محمد عليهما السلام علاقة تقوم على شرف الاصطفاء وطهارة النسب ، فقد كانت بينهما كذلك علائق تقوم على شرف الفطرة وشرف السلوك ، يقول سيدنا عيسى عليه السلام . « احسنوا الى مبغضيكم وصلوا لاجل الذين يسيئون اليكم » ..

ويقول سيدنا محمد عليه السلام « صل من قطعك ، واعط من حرمك واعف عمن ظلمك » .

ثم يقرر الانجيل الذى انزل على عيسى « ماذا ينفع الانسان ، لوربح العالم كله وخسر نفسه » ؟.

ويقول القرآن الذى أنزل على محمد ((**قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها**)) كما يقول سبحانه ((**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم**)) .

ويستخرج عيسى صلوات الله عليه من أسوأ الاجيال التى مرت بها الانسانية ، ظلام نفوس وقساوة قلوب ، جيلا من الحواريين الاطهار هم خير من عرفت دنياه عليه السلام ؛ شرف نفس ، وقوة عزم ودوام جهاد فى سبيل الله .

وكذلك يستخرج محمد صلى الله عليه وسلم من بين مشركى العرب وأقسى الناس قلوبا وأغلظهم اكبادا ، جيلا من اصحابه عليه السلام هم مضرب المثل فى التضحية والفداء ، وفى العزوف عن الدنايا والاستماتة فى نصرة الحق وقهر الباطل ، فهم النور الذى

أشرقت به ظلمات الانسانية وصلح عليه أمر الحيارى التائهين فى دنيـــا النـــاس .

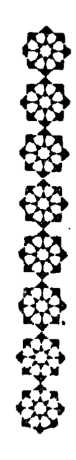
انـــا حين نتحدث عن السيد المسيح نحيى ذكراه ، وندرس تاريخه ، ونستمع الى أدبه ونتعظ بمواعظه ، انما نستهدى فى ذلك كله بأدب الاسلام ، وننتصر للحق الذى جاء به محمد عليه الصلاة والسلام . وليس هذا القول مجازفة بالباطل ، أو جريا على غير هدى . وانما هو عن توجيه كريم وارشاد أمين ، يرشد به النبى أمته فى قوله الشريف :

« نحن معاشر الانبياء أبنـــاء علات . ديننا واحـــد . وشرائعنا مختلفة » .

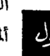
وان كل تحية نتجه بها الى سيدنا المسيح ، هى تحية نتجه بها الى سيدنا محمد ، والله تعالى يلهمنا الحق ، ويقوى عزائمنا على الخير . ويهدينا سواء السبيل .



القدس .. ودعوة إلى التأمل



على الذين يريدون تدويل القـــدس .. آن يتأملوا هذه الكلمات على ضـوء الحقـــائق الدينيـــة والتاريخية .. وســـوف يتبين لهم ان بقاء هـذه الارض فى سلطان المسلمين اقدر علىتحقيق الطمأنينة فى أرض الســـلام .



القدس والمقدساتالدينية فيها دار بينى وبين بعثة تليفزيون ألمانيا الغربية حديث وحوار ٠٠ وكانت هذه البعثة قد زارت القاهرة مؤخرا ، وأذكر أنى قلت لرئيس البعثة :

ان الاسلام يعترف بالديانة اليهودية والديانة المسيحية ، ويقرر أن الايمان بموسى وعيسى عليهما الســـلام شرط لتحقيق الايمان بمحمد عليه السلام ، فليس بمسلم من يؤمن بمحمد ويكفر بموسى أو عيسى عليهما السلام ٠

وليس هذا كلاما لا سند له ، فان القرآن الكريم ــ وهو كتاب المسلمين المقدس ــ يأمرهم فيقول لهم : **((قولو آمنا بالله ، وماأنزل الينا ، وما انزل الىإبراهيمواسماعيل واسحاقويعقوب والاسباط ،**

وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون » .

وان شرط الايمان بالقرآن .. الايمان بالتوراة التى أنزلت على موسى ، وبالانجيل الذى أنزل على عيسى .

هذا من الجانب النظرى ، وليست العبرة كل العبرة تجىء فى الجانب النظرى ، ولكن المقياس التطبيقى العملى هو المقياس الصحيح للنظريات .

ومن هذا الجانب العملى التطبيقى نرى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين حين تم فى عهده فتح بيت المقدس وحين دعى لزيارة البلد الجديد (ايلياء) وهى بيت المقدس استجاب وذهب الى هناك ، وجلس حتى حان وقت الصلاة فالتمس مكانا يصلى فيه ، غير أن القساوسة الذين يشرفون على كنيسة القيامة دعوا أمير المسلمين الى أن يؤدى صلاته فى كنيسة القيامة ..

ولكن « عمر » رفض أن يستجيب لهذه الرغبة ، وكان رفضا قائما على أكرم معنى يمكن أن يقع فى قلب انسان كبير .. فقد قال لهؤلاء القساوسة : « أخشى ان أنا صليت فى هذا المكان ، أن يجىء المسلمون من بعدى ويقولوا ها هنا صلى خليفة رسول الله وأمير المؤمنين عمر ، ثم يغلبوكم أيها المسيحيون على هذا المكان ويأخذوه منكم ويتخذوه مسجدا .. » ثم قام عمر الى موضع آخر بعيدا عن الكنيسة وأدى صلاته ..

والمكان الذى صلى فيه يقوم عليه الآن فى مدينة القدس مسجد يسمى مسجد عمر بن الخطاب ..

وحين جاء صلاح الدين الايوبى محررا لبيت المقدس ، كان عمر قدوة له فى التسامح والتأدب بأدب الاسلام . فأظهر من احترام الاماكن اليهودية والمسيحية ما لا يزال المنصفون من علماء أوروبا وأمريكا يرفعون من ذكره ويعلون من قدره الى اليوم .

وقد عرف هذه المعانى الموصولة بالاسلام لصلاح الدين أعظم كتاب القصص فى الغرب وأنتجوا أفلاما مثل فيها كبار الممثلين الغربيين تعرض سماحة الاسلام وتقيد صلاح الدين المسلم بالاسلام وترفع من قدر هذا التسامح .

ولما أنتصر الحلفاء فى الحرب العالمية الاولى ، رأى حارس كنيسه القيامه وهو عربى مسلم .. أن يسلم مفاتيح الكنيسة الى الفاتح الانجليزى .. غير أن اللورد اللنبى قائد قوات الحلفاء المنتصرة فى تلك الحرب رد المفاتيح الى الذين كانوا يقومون على خدمة كنيسة القيامة ورعايتها منذ عشرات السنين . وربما كان تصرف هـذا القائد ، ملاحظا فيه ما كان قائما بين الطوائف المسيحية من الاتفاق على أن يلى مفاتيح الكنيسة مسلم دفعا للخلاف بين هـذه الطوائف منذ القدم .

ومن هنا كان بقاء بيت المقدس فى أيدى المسلمين خـير ضامن للحرية الدينية واحترام الاماكن المقدسة للمسلمين وغير المسلمين، لان المسلمين بحكم دينهم يحترمون مقدساتهم ومقدسات غيرهم من أهل الديانات السماوية يهودا كانوا أو نصارى .

وليس يخفى أن الاحترام الناشىء عن الدين عميق عمق العقيدة وخالد خلودها . والاحترام الناشىء عن السياسة احترام سطحى ومحدود بالظرف السياسى والمصلحة السياسية .

وخلاصة هذا أن التفكير فى تدويل القدس ، تفكير لا يبالى بالعواقب السيئة ، ويريد أن يقامر بتجربة جديدة ، تاركا وضعا كريما مستقرا منذ مئات السنين ، الى وضع جديد لا تسـانده عقيدة ولا تؤيده تقاليد .

وربما كان هذا الوضع الجديد داعية قتـال دموى بين المسيحيين بعضهم مع بعض ، وبين المسلمين والمسيحيين من جانب ، وبين اليهود من جانب آخر .

وبوصفى مديرا لجامعـة الازهر الشريف أدعو الذين يريدون تدويل هذه الارض المقدسة ، وعلى رأسهم قداسـة بابا روما أن يتأملوا هذه الكلمات على ضوء الحقائق الدينية والتاريخية وسوف يتبين لهم أن بقاء هذه الارض فى سلطان المسلمين ، كما كانت من قبل أقدر على تحقيق الطمأنينـة ، وأضمن لتقرير السـلام فى أرض السلام .

⊙❖⊙

وفى ظل ظليل من المشاعر الاسلاميـة السمحة ، لقيت علماء من الشرق والغرب ، ودعوتهم باسم جامعة الازهر للتحـدث فى قاعه الامام محمد عبده الى أساتذة الازهر وطلابه . وفى مقدمة من تحدث

الينا من هؤلاء العلماء : الكاردينال كوينج كاردينـــال النمسا ، والاستاذ فوشيه رئيس قسم الشريعة الاسلامية بجامعة السوربون ، والاستاذ بلاشير المستشرق الفرنسى ، والاستاذ السيـــد أبا بانت سفير الهند فى مصر ، وكثيرون غير هؤلاء ٠

ولم يصدنى عن لقائهم والانتفاع بعلومهم ومعارفهم أنى مسلم وانهم غير مسلمين ؛ ايمانا منى بالتوجيه الصادق السمح فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحكمة ضالة المؤمن ، يأخذها أنى وجدها ، لا يبالى من أى وعاء خرجت » ٠

بل ان موقف الحـكومة الامريكيـــة من بلادى فى تأييـــدها للصهيونية الغادرة ، لم يصرفنى عن لقاء علماء أمريكا من أوصياء الجامعة الامريكية وأساتذة المعاهد العليا الامريكيين ٠ وقد تحدثت اليهم حديثا صريحا ، أظهروا لسماعه أطيب المشاعر ، وقلت لهم فيما قلت على مشهد من مئات المثقفين :

ان العلم رحم بين أهله ، ولهذه الرحم علينا حق التواد والتناصح وأنتم تنتمون الى شعب لا ريب أنه بلغ من القوة ومن العلم ومن الغنى مكانا رفيعا ٠ فأنتم من هذا الجانب ومن جوانب أخر ، موطن أمل ٠ ومعقد رجاء ، لشعوب كثيرة فى أنحاء العالم ٠ ومرد هـــذا الامل فيكم ، ومعقد الرجاء عندكم ، أنكم شعب بذل فى سبيـــل استخلاص حقوقه من الغاصبين، واسترداد حريته من المستعمرين، كثيرا من الجهد والدم والمال ، والحرية لا يقدر قيمتهـــا الا الاحرار المجاهدون ٠

ثم أنتم بعد ذلك تنتمون الى شعب خاض حربا عالمية عاتية ،هى الحرب العالميـــة الثانيـــة ، أنفق فيهـــا كثيرا من دمه وماله وزهرة شبابه ، وكان ذلك كله من أجل مكافحة النازية المدمرة ٠ ومازلتم فى هذا الميدان من الكفاح والجهاد ، حتى كتب الله النصر ، وزالت النازية بكل آثامها وجرائمها ٠

ولم يكن للنازية من ذنب سوى أن هتلر وضع نفسه وشعبـــه فوق العالمين ، عرقا ودما وعنصرا ٠ ثم انه اضطهد اليهود وشتتهم وصادر أموالهم وخرب ديارهم ٠

وانكم لترون معنا أن الصهيونيـــة تصـــنع بالعرب فى فلسطين ما صنعت النازية باليهود فى ألمانيا ٠ ومع ذلك فان أمريكا العظيمة

القوية التى عرفت ذل الاستعمار وذاقت حلاوة الحرية ، لم تقف الى جانب العروبة المضطهدة المشردة ، بل وقفت الى جانب الصهيونية الغاصبة الظالمة ، تمد لها فى طغيانها ، وتؤيدها فى عدوانها ·

وقد وقف العالم حيال أمريكا ينظر اليها ، بين صديق مشفق ، وعدو شامت · والوضع فيما يرى الراءون الآن ، أن ساسة أمريكا أشمتوا بها الاعداء ، وأيأسوا منها الاصدقاء .

وانى لأرجو أن تعلموا أنى لاأتحدث فى هذا المقام عن نظر سياسى فان أهل السياسة أعلم بها وأقدر عليها ·

ولكننى أتحدث اليكم عن نظر علمى ، هو الصلة بين جامعاتكم العظيمة وجامعتنا العريقة ·

وحديث العلم ، والامانة التى للاجيال فى أعناقنا وأعناقكم ، أبقى أثرا ، وأكرم ثمرا ، وأعظم نفعا ، وأخلد ذكرا ، من حديث السياسة

فليكن العهد بيننا أن نكون رسل سلام حيث كنا ، وأن نقف مع المظلومين على الظالمين · فتلك هى رسالة العلم ، وتلك هى أيضا الغاية العليا التى تغياها محمد والمسيح عليهما أفضل الصلاة وأزكى السلام ··



الكتاب القادم

يوميات فنان في باريس

المخرج المسرحي فتوح نشاطي يصحبنا في العدد القادم من كتاب اليوم في رحلة معه الى باريس عام ١٩٣٧ ، رحلة عمرها اكثر من ¼ قرن نرى معه فيها كيف كان التمثيل والاخراج المسرحي في ذلك الوقت في مدينة النور .

في هذا الكتاب ينتقل بنا فتوح نشاطي بين أرجاء باريس لنشاهد فنونها ونطالع آدابها ونستمتع بمجاليها . فهو يأخذنا حينا لمشاهدة احدى المسرحيات ، وحينا يدعونا الى زيارة أحد المتاحف أو المعالم الاثرية . وهو يطالعنا بقراءاته المتنوعة في كتب الفنون المسرحية والنقد والشعر ، ولا ينسانا في لقاءاته الشخصية مع أبرز رجالات المسرح ، مثل اندريه انطوان ، وجاك كوبو وشارل ديلان ولوي جوفيه وغيرهم

ترجم الدكتور أنيس فهمي هذه اليوميات من اللغة الفرنسية الى اللغة العربية في أسلوب رشيق ، ممتع ، جذاب .

كتاب اليوم

الثمن ١٠ قروش

